مبادئ نجاح الداعية المربي ،
من خلال شخصية
الإمام بشر الحافي.

تأليف

د/ عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

من ١٢٧ إلى ٢٢٢

Success Principlesof The One Who Educates And Calls To Allah
Depending On The Personality Of Imam Bishr Al-Hafi

Dr. Abdel Rafea Abdel Halim El-Sayed El-Faqi
Assistant Professor, Department of Da`wah and Islamic Culture
College of Islamic Da`wah in Cairo
AzharUniversity

مبادئ نجاح الداعية المربي ، من خلال شخصية الإمام بشر الحافي

عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي .
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية- كلية الدعوة الإسلامية -جامعة الأزهر - مصر .
البريد الإلكتروني : abdelrafeeabdelhaleem.2013@azhar.edu.eg

ملخص البحث : يسعى البحث إلى الوقوف على مبادئ رئيسة ، تضمن تحقيق الداعية النجاح لرسالته الإصلاحية ، من خلال استعراض حياة ومواقف الإمام بشر بن الحارث الحافي ، المربي ، القدوة . وخلص البحث إلى استنباط عدة مبادئ ، عاشها الإمام بشر ، فكراً وممارسة . واستطاع بها أن يكون إماماً ، مؤثراً في عصره ، وأسوة يتأسى بها المسلمون ، طوال تاريخهم ، القديم والمعاصر . ومن أهم المبادئ التي وقفت عليها من حياة الإمام ومواقفه ، علاقته القوية بربه سبحانه ، وخشيته وإخلاصه لمولاه . وحذره الدائم من مخاطر تسلل الرياء ، والنفاق إلى قلبه . زهده في الدنيا وشهواتها ، وحرصه على أكل الحلال الصافي ، وعفة نفسه .و تفاعله مع المجتمع ، وإحساسه بالمحرومين ، ووجوب مواساتهم بكل الصور الممكنة . وانتهاز الأحداث الواقعة في التذكير بالله ، والإحساس بالمسئولية أمام الله عن الإفتاء وتعليم الناس دينهم . لذا كان صاحب مواقف من قضايا دينه ومجتمعه !.

- وكان للإمام نصائحه المهمة لطلاب العلم ، وصلاته الحسنة مع إخوانه العلماء ، وثناؤه عليهم ومراسلاته لهم ، المليئة بالحب والتوجيه والتسديد ، والتوصية المهمة في هذه الدراسة ، وجوب الاكتشاف والوقوف على مبادئ ومناهج الدعاة الكبار ، المؤثرين ، بقولهم وفعالهم ، والعمل على تحقيقها في حياة دعاة الأمة في هذا العصر .- وهذا يحتاج إلى الإحاطة بسير هؤلاء الأئمة من مختلف المصادر ، وتحليلها ، وتقديم هذه المناهج والمبادئ ، لأجيال المعاصرة والقادمة .

وقد استخدمت في البحث المنهج الوصفي ، والتحليلي ، والتاريخي .

الكلمات المفتاحية: مبادئ -نجاح- الداعية -المربي- الإمام بشر الحافي.

Success Principlesof The One Who Educates And Calls To Allah Depending On The Personality Of Imam Bishr Al-Hafi

ABDELRAFEA ABDELHALIM ELSAYED ELFIQI
Department of Islamic Call & Culture, Faculty of Islamic Call, Al-AzharUniversity, Egypt..
Email: abdelrafeeabdelhaleem.2013@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to clarify the main principles that guarantee the success of the reform mission of the caller by reviewing the life and positions of Imam Bishr bin Al-Harith Al Hafi, the educator and role model.

- The research conclusion extrapolates several principles that Imam Bishrfollow during his life regarding his thoughts and practices, and by which he was able to be an influential Imam at his time and a role model followed by Muslimsthroughout theirancient and contemporary history.

- The most importantdiscussed principles of the life and the positionsof the Imam include his strong relationship withAllah– the Almighty – his fear and loyalty to his Lord, and his constant attention to the dangers of hypocrisy and ostentation creeping into his heart. Such principles also include his asceticism and its covetedthings, his keenness to eat what is lawful, and his chastity.

- Such principles also include his interaction with the society,his sympathy with the deprived, his understanding of the necessity comforting the deprived in all possible ways, taking advantage of the occurring events to remind people of Allah, and his sense of responsibility before Allahfor issuing fatwas and teaching people their religion. Therefore,the Imam had good attitudestowards the issues of Islam and society.

- The Imam provided significant advices to thosewho seek knowledge, and he had solid relations with his fellow scholarsand he used to praise them and write to them with words full of love, guidance, and direction.

- The most significant recommendation of this research is the necessity of recognizingand identifying the principles and approaches of the great callers influential with their sayings and actionsand the necessity for theIslamiccallers of this time to achieve such principles in all aspects of their lives.

- For achieving such goal, Islamic callers need to understand and analyze the biographies of these imams depending on various sources and to present theirapproaches and principles for the contemporary and the future generations.

- I use the historical, descriptive, and analytical surveys.

Keywords: Principles- Success- Preacher- Educator- Imam Bishr AlHafi.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، وصلاة وسلاماً على خاتم الأنبياء، والمرسلين، وسيد بني آدم أجمعين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعـــــــد :

فإن أهمية وجود القدوات الحسنة في نهوض الأمم وقوتها، وفي الهداية إلى الحق وفدائه وتعظيمه، واضحة جلية .

لذا ينبغي إبرازها وتدريسها للأجيال، والتنويه بفضائلها، والتصدي لمن يشوه مآثرها، ويطمس أنوارها، بل علينا دوام التذكير بهذه القدوات لأطفالنا وأجيالنا بالإعلام المؤثر؛ ببرامج وأفلام، ووسائل تواصل اجتماعي، وندوات ومؤتمرات، وملصقات، وكتيبات ومسابقات، وخطب وكلمات ... إلخ .

إن غياب وتغييب القدوات الصالحة، وإسقاطها من ذاكرة المجتمع، من أخطر الوسائل في تدمير المجتمعات وإفسادها، وإخلاء السبيل للنماذج السيئة لتكون هي الأسوة!!.

إن القدوة الصالحة تعمل بحالها وقولها ومواقفها على تهذيب المجتمع وإصلاحه، وتسعى إلى جعله مترابطاً عقائدياً وشعورياً واجتماعياً، وتعمل لوحدة الأمة وتماسكها أمام التحديات، فتقف شامخة، وهي مطمئنة لوعد الله لها بالنَّصر والتمكين .

هذه القدوة، تولد القناعة التامة بما تطرحه على الناس، ويدعو إليه .

وصدق العلامة الشيخ محمد الغزالي حين أكد على أهمية إعداد وتكوين الدعاة المربين، لينقذوا الأمة، ويصلحوها ويحموها !، فقال: "إن تكوين الدعاة يعني تكوين الأمة؛ فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين .

وأثر الرجل العبقري [" الصالح العظيم "] فيمن حوله كأثر المطر في الأرض الموات، وأثر الشعاع في المكان المتألق" . إنه " القائد الذي نفخ في الجموع من روحه روح الحرية ، ... ، إن الفرد الكبير يخلق العجائب في النفوس ، ويستطيع أن يجمع المتفرق ، ويعلّم الجهول ، ويقرب البعيد ، ... "

ودعا إلى إعداد " دعاة مدربين بواسل، ينطلقون، ليرأبوا الصدع، ويجمعوا الشمل المسلم، ويتعهدوا مسيره، ويقوّموا عوجه، ويذودوا عنه كيد الخصوم، ومكر الأعداء، وعبث الجهال وسفه المفتونين" .

وقال: "الإسلام فقير إلى رجولات متجردة لدينها ورسالتها، تهب حياتها لله، وتجعل مماتها فيه ، متأسية بالإمام الأعظم الذي نزل على لسانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ " (١٦٣) [١] .

إن في دراسة سير العلماء ومواقفهم ورؤاهم فوائد نفيسة، ودروساً وتربية للدارس والقارئ .

منها:.

١- الاعتبار والاتعاظ، واكتساب الخبرات والعلوم، والتعامل المتقن مع الأحداث .

"وربما أفاد التاريخ حزماً وعزماً، وموعظة وعلماً، وهمة تذهب هماً، وبياناً يزيل وهناً ووهماً. ... وصبراً ، يبعثه التأسي بمن مضى، واحتساباً يوجب الرضا بما مر وحلا من القضا ..." [٢] .

٢- التأدب بآدابهم والاقتباس من محاسن آثارهم وأحوالهم، عسى أن نحشر في زمرتهم!.

٣- إن إحياء ذكر رجالات الأمة وعظمائها، " فيه إحياء للأمة كلها ، ...، فإن ذكرها حياة جديدة، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، وتصورُهم في القلوب، ومعرفة أفعالهم وزهدهم، وورعهم وديانتهم، وانصرافهم عن الدنيا، واحتقارهم لها، وصبرهم على شدائد الطاعات والمصائب في الله – نافع جدا ، فيتخلق الناظر

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، "مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة"، ط٦، ٢٠٠٢م، نهضة مصر ، القاهرة.

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٦٢ : ١٦٣ .

بأخلاقهم، ويتعطر السامع بأحوالهم، فالطبع منقاد، والإنسان معتاد!"[١] .

وسيدنا بشر من هؤلاء العظماء ، ذوى التميز ، والتأثير الكبير ، وقد وجدت شخصية الإمام بشر الحافي مليئة بدروس ومواقف تربوية عظيمة ، لذا عزمت على دراستها وإبراز ما نحتاجه في حياتنا الدعوية والإيمانية المعاصرة.

منهجي في البحث : استخدمت المنهج الوصفي ، والتاريخي ، والتحليلي .

وقد قسمت البحث إلي مقدمة ، وفصلين وخاتمة .

المقدمة: تحتوي على أهمية الدراسة ومنهج البحث ، وخطته.

- أما الفصل الأول ، فعنوانه : التعريف بسيرة الإمام بشر .

ويتناول نشأته وطلبه العلم وشيوخه ، وحياته الشخصية . وقد قسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : النشأة والتوبة ، وطلب العلم والشيوخ .

المبحث الثاني : حياته الشخصية ، وطعامه وشرابه .

- الفصل الثاني ، عنوانه : مبادئ نجاح الداعية المربي ، من خلال شخصية الإمام بشر.

وقد قسمته إلى عدة مباحث :-

المبحث الأول : علاقة قوية بالله ، وإخلاص له .

المبحث الثاني : أخلاق عالية تميز بها ، ويحتوي على عدة مطالب :

- المطلب الأول : خشيته الدائمة من مخاطر الرياء والشهرة ..
- المطلب الثاني : زهده في الدنيا ، وتحريه الحلال .

---

(١) شمس الدين محمد السخاوي، "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ"، ط/١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٤١، و"الجواهر المضية في طبقات الحنفية"، لعبد القادر محمد بن نصر الله الحنفي، نشر مير محمد كتب خانة، كراتشي، ج١، ص ٣ ــ ٥ ، بتصرف يسير.

- المطلب الثالث : عفة نفسه .

المبحث الثالث : قيامه بالدور الاجتماعي التربوي . ويحتوي على عدة مطالب :

- المطلب الأول : إحساسه القوي بالمحرومين ، ونصرته للمظلوم .
- المطلب الثاني : الفهم العميق للقضايا ، ولفقه الأولويات .
- المطلب الثالث : حبه التذكير الدائم بالله ، والاعتبار بالأحداث .
- المطلب الرابع : صاحب مواقف من قضايا ومشكلات مجتمعه .
- المطلب الخامس : عنايته بالجانب التربوي .

المبحث الرابع : الاهتمام بالجانب العلمي وتعاونه مع العلماء . ويحتوي على عدة مطالب :

- المطلب الأول : تعظيمه للعلم ودور العلماء ، وتناصحه ومراسلاته معهم .
- المطلب الثاني : تعامله الكريم مع إخوانه العلماء وثناؤه عليهم .
- المطلب الثالث : الشعور بالمسئولية عند التعليم والإفتاء .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات التي يراها الباحث ضرورية .

ثم الفهرس المتعلق بالبحث .

وكلي رجاء في ربي – سبحانه وتعالى – أن يقبل هذا العمل ، وأن ينفع به ، وأن يملأ حياتنا بالقدوات الصالحات أمثال سيدنا بشر ، – رحمه الله ورضي عنه –.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول :

التعريف بسيرة الإمام بشر

المبحث الأول :

أ- النشأة والتوبة وطـــــلب العلم والشيوخ

هو : بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، بن هلال، بن ماهان، بن عبد الله، المروزي، يكنى "أبا نصر"،"أحد أولياء الله الصالحين، والعباد السائحين"، ... وكان "ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرد بوفور العقل، وأنواع الفضل، وحسن الطريقة واستقامة المذهب، وعزوف النفس، وإسقاط الفضول"، ولد عام ١٥٠هـ. أصله من مرو، من قرية على ستة أميال من مرو، يقال لها" ماترسام"، وسكن بغداد ومات بها ،عام ٢٢٧هـ، عن ٧٦ سنة، وكان بشر من أولاد الرؤساء والكتبة، فصحب الفضيل وأصحابه، ورأى سري السقطي وغيره [١] .

- ووصفه ابن خلكان[٢]بأنه "أحد رجال الطريقة -رحمه الله- ، كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين" [٣] .

وقال عنه الدارقطني[٤]: زاهد، جبل، ثقة، ليس يروي إلا حديثاً صحيحاً [١] .

---

(١) "صفة الصفوة"، لعبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، ط (١)، ٢٠٠٠م، ج١، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٧، و"الرسالة القشيرية"، ص ٤٨، و"الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية"، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد أديب الجارود، ط. دار صادر، بيروت، ج١، ص٥٥٧، و"تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٧، ص٥٤٥ .

(٢)ابن خلكان: هو قاضي القضاة، شمس الدين، أحمد بن محمد بن إبراهيم ..، أبو العباس، مؤرخ وقاض وأديب، من أعلام دمشـــق، ولد في العراق عام ٦٠٨هـ، ومات عام ٦٨١هـ. إمام متقن، كريم، لـــــه مصنفات مهمة ــ رحمه الله ــ. انظر "الموسوعة التاريخية"، إعداد مجموعة من الباحثين، بموقع "الدرر السنية" ،على الإنترنت، وانظر "البداية والنهاية"، لابن كثير، ج١٣، ص ٣٥٢ .

(٣) "وفيات الأعيان"، لابن خلكان، ج١، ص٢٧٥ .

(٤)الدارقطني: هو الإمام، أبو الحسن، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، ولد عام

- وجاء في "طبقات الأولياء" عنه: "أحد رجال الطريقة، ومعدن الحقيقة، أمثل الصلحاء، وأعيان الورعاء" [٢] .

وقال عنه صاحب "حلية الأولياء" : "ومنهم (من الصوفية) من حباه الحق بجزيل الفواتح، وحماه عن وبيل القوادح: أبو بشر بن الحارث، الحافي، المكتفي بكفاية الكافي، اكتفى، فاشتفى" [٣] .

- وقال صاحب "الكواكب الدرية" عنه: "كان كبير الشأن، عظيم المقدار، عالي المنزلة، رفيع المنار، لطيف الإشارة، عذب الكلام، طلق العبارة، عديم النظير، زهداً وورعاً وصلاحا، كثير الحديث، لكنه كره الرواية آخراً" [٤] .

(أي كره الجلوس يروي الأحاديث للناس خشية الرياء والعجب!).

- وجاء في "سير أعلام النبلاء" عنه: "الإمام، العالم، المحدث، الزاهد، الرباني، القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر المروذي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي" .

و"كان يذم نفسه، فقد كان رأساً في الورع والإخلاص" [٥] .

٣٠٦هـ، عرف بالدارقطني نسبة إلى "دار القطن"، وهي قرية في بغداد، من كار علماء الحديث، فقيهاً، عالماً بالقراءات والنحو، والشعر، والجرح والتعليل، حسن التصنيف والتأليف. توفى عام ٣٨٥هـ - رحمه الله - ، انظر "تاريخ بغداد"، ج١٢، ص٣٤. و"شذرات الذهب"، ج٣، ص١١٦ .

(١) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ط. دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م ج١٠، ص٢١٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٩٠ .

(٢) "طبقات الأولياء"، لابن الملقن، سراج الدين، تحقيق: نور الدين شريبة ، ط ، الخانجي، ص ١٠٩، القاهرة، ١٩٩٤م ، ص١٠٩.

(٣) "حلية الأولياء"، لأبي نعيم، ط/٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٨، ص ٣٤٢ .

(٤) انظر: "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية"، مرجع سابق ، ج١، ص ٥٧٧ .

(٥) "سير أعلام النبلاء"، ج ١٩، ص ٤٦٤ .

بدايـــة مشرقة بتعظيم اسم الله تعالى
فرفع الله قدره وطهر قلبه.

كان بشر شاطراً يجرح بالحديد، (صاحب عصابة) ، لكن الله أراد له الهداية، وأعانه عليها برحمته، وكانت بدايته مع طريق الله واجتبائه له، أمراً كله تعظيم لله وتقديس لاسمه الجليل وصيانة لاسم الله تعالى أن يُداس على الأرض أو يُهان، مع إجلال وحب عظيم لربه ومولاه . يحكي عن ذلك فيقول لأيوب العطار[١]، صديقه: "أحدثك عن بُدُوّ أمري؟! .

بينا أنا أمشي رأيتُ قرطاساً على وجه الأرض فيه اسم الله – تعالى –، فنزلت إلى النهر فغسلتُه، وكنتُ لا أملك من الدنيا إلا درهماً فيه خمسة دوانق . فاشتريتُ بأربعة دوانق مسكـــــاً، وبدانق ماء ورد، وجعلت أتتبع اســم الله – تعالى – وأطيّبه، ثم رجعتُ إلى منزلي، فنمتُ، فأتاني آتٍ في منامي، فقال: "يا بِشرُ، كما طيبتَ اسمي لأطيبين اسمك في الدنيا والآخرة، وكما طهّرتَه لأطهرنَّ قلبك"! .

إن بشراً يذكر ذلك، من باب شكر نعمة الله وفضله عليه، ومنِّه بالهداية والإصلاح، وتعليم لغيره أن يعظم الله يقدس اسمه، ويأتي من العمل الصالح ما به يهديه الله ويثبته! [٢].

وفي رواية أخرى، أن بشراً وجد قرطاساً في أتون حمام ، فيه "بسم الله الرحمن الرحيم"، فعظم ذلك عليه، ورفع طرفه إلى السماء وقال: "سيدي، اسمك ها هنا ملقى!". فرفعه من الأرض، واشترى عطراً بدرهم، لم يكن معه سواه، وطيب القرطاس، وأدخله شِق حائط . وانصرف إلى زجَّاج كان

---

(١) هو سليمان بن الحسن بن المنهال ، البصري ، ثقة ، صاحب بشر وجليسه ، انظر "الجامع في الجرح والتعديل" ، جمع وترتيب السيد أبو المعاطي وآخرون ، ط١ ، ١٩٩٢م ، عالم الكتب ، بيروت ، ج١ ، ص٣٣٣.

(٢) "صفة الصفوة"، ج١، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣، و"الرسالة القشيرية"، ص ٤٨. وجاء في "تاريخ دمشق"، ج١٩، ص ١٨٢، رواية قريبة من ذلك .

يجالسه، فقال له الزجاج: "والله يا أخي، رأيتُ لكَ في هذه الليلة رؤيا ما رأيت أحسن منها"، واشترط عليه ليخبره أن يحدثه عما صنع! .

فأخبره بشر بحادثة القرطاس وتطييبه له، فقال له الزجَّاج: "رأيت كأن قائلاً يقول في المنام: قل لبشر: ترفع اسماً لنا من الأرض إجلالاً أن يداس، لننوهنَّ باسمك في الدنيا والآخرة" [١] .

طلبه العلم والتزكيـــــــة

كان سيدنا بشر في حداثته يطلب العلم، ويمشي في طلبه حافياً، فغلب عليه ذلك واشتهر بلقب "الحافي" .

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد في ذلك: "رأيت قدميْ بشر قد اسودَّا، من أثر التراب، مما يمشي" .

وفي اختيـــاره أن يتحفى في حياته سببـــان – في نظر بعض العلمـــاء – ، يفسران ذلك:

أحدهما: أراد بذلك التزهد وترك التنعم، اقتداء بالسلف الذين كانوا يصنعون ذلك!.

ومنهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب القائل: "إياكم والتنعم!" .

وقال مسعر[٢]: من طلب الحديث فليتقشف، وليمش حافياً! .

الثاني: صح عن رسول الله – ﷺ – أنه قال: "من اغبرت قدماه في سبيل الله، حرمهما الله على النار" [٣].

---

(١) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٤، ٥٤٥، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر بن الحارث الحافي"، ط. دار المعارف، د/ ت، ص١٨، ١٩ .

(٢) مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث، الإمام الثبت، شيخ العراق، أبو سلمة، الكوفي، الحافظ، كان من معادن الصدق، آية في العبادة وقيام الليل والحفظ والفقه. توفى في رجب عام ٢٥٥هـ. انظر "حلية الأولياء"، ج٧، ص ٢٤٩ ــ ٢٥٦. و"شذرات الذهب، ج١، ص ٢٣٨ .

(٣) "مسند الإمام أحمد بن حنبل" ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون ، ط١ ، ٢٠٠١م ،

لذا اختار سيدنا بشر أن ينال هذا الجزاء بالنجاة من النار بطلبه العلم، وقدماه مغبرتان في سبيل الله .

وهناك سبب ثالث، حيث ورد عن رسول الله قوله: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب"[١].

– وجماعة ممن طلب العلم أخذوا بظاهر اللفظ، فاختاروا التحفي، احتراماً لأجنحة الملائكة، – عليهم السلام – [٢]. وورد سبب رابع ذكره سيدنا بشر، عندما سئل: لم لا تلبس نعلاً؟ قال: "ما صالحني مولاي إلا وأنا حاف، فلا أزول عن هذه الحالة" [٣] .

وفي "طبقات الأولياء" سبب خامس لذلك، هو ذهاب سيدنا بشر لإسكافي يطلب منه شسعاً لأحد نعليه، الذي انقطع، فقال له الإسكافي: "ما أكثر كلفتكم على الناس" .

فألقى بشر النعل من يده، والأخرى من رجله، وحلف لا يلبس نعلاً بعده! [٤] .

وجاء في "الكواكب الدرية" للمناوي سبب سادس للحفاء الذي اشتهر به، وهو أن سيدنا بشراً كان في ابتدائه في لهو ولعب، فجلس مع رفقائه لذلك،

مؤسسة الرسالة – بيروت ، ج٢٥ ، ص٢٨٣.

(١) "مسند الإمام الشافعي" ، ترتيب السندي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٥١م ، ج١ ، ص٤١.

(٢)كتاب "مناقب بشر الحافي"، الذي لا توجد نسخة له، لكن د/ عبد الحكيم الأنيس، تتبع نقولاً ذكرت في عدة كتب، منها "وفيات الأعيان"، لابن خلكان، وكتاب "المنتقى من طبقات الأولياء"، للشيخ/ موسى الكناوي. ودراسة د/ عبد الحكيم الأنيس، نشرت في موقع "الألوكة" بالشبكة العنكبوتية، بعنوان: "نصوص من كتاب" مناقب بشر الحافي"، المفقود، لابن الجوزي .

(٣) "الكواكب الدرية" للمناوي، ج١، ص٥٩٨ .

(٤) "ابن الملقن"، طبقات الأولياء"، ج١، ص ١٠٩ .

فدق رجل بابه، فخرجت الجارية ، فقال الطارق: "صاحب هذه الدار حر أم عبد؟". قالت: حر. قال لها: "صدقتِ، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو". ثم ولى، فدخلت الجارية ، فأخبرت بِشرا بما حدث، فخرج يعدو خلفه حافياً حتى أدركه، وقال له: "أعِدْ الكلام!"، فأعاده، فانتفع بالكلام وتأثر به، واستمر بالحفاء، حتى عرف به!! [١] .

واتجه في صدق إلى العلم والعبادة، وتعلم في "مرو" ما استطاع، وبدأ يرحل في طلب العلم، وكانت "السياحة" أحد أوصافه اللازمة، فسافر إلى مكة والكوفة والبصرة والشام .

واستقر ببغداد التي كانت محط الآمال، والطموحات المختلفة؛ لطلاب المناصب، والجاه، وكذا من أراد العلم والهداية، حيث العلماء والفقهاء والمربون .

واستقر بشر ببغداد، متتلمذاً متعلماً، ثم معلماً مرشداً! .

– وقد كان ببغداد – وقت تعلمه – كبار الأئمة في الحديث والفقه وغيرهما، فكان سفيان الثوري[٢]، أمير المؤمنين في الحديث، والإمام أحمد بن حنبل[٣]، والمعافَى بن عمران، وسفيان بن عيينة ، والجنيد[٤]، وعشرات غيرهم من

---

(١) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٥٧ .

(٢) هو: شيخ الإسلام، سفيان بن سعيد بن مسروق، الكوفي، الفقيه، المحدث، سيد أهل زمانه، علماً وعملاً، ولد ٩٧هـ، وكان أبوه من ثقات المحدثين، انظر: "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٤، ص٣٨٣ ــ ٣٩١ .

(٣) الإمام أحمد: هو أبو عبد الله أحمد بن محمد حنبل، الشيباني المروزي ثم البغدادي، أحد الأئمة الأعلام، عالي المكانة في الحديث والفقه والورع والجهر بالحق والثبات عليه، ولد عام ١٦٤هـ، وتوفى عام ٢٤١هـ انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ١٨ .

(٤) الجنيد: هو: محمد بن الجنيد، أبو القاسم الخراز، ويقال: القواريري. ولد ونشأ ببغداد، صحب سري السقطي، والمحاسبي، وغيرهم من كبار الصالحين، كان ذا عبادة وورع وخشية، وحكمة وحال عظيم. مات عام ٢٩٨هـ. انظر "البداية والنهاية"، ج١، ص ١١٣ ــ ١١٥. و"طبقات الحنابلة"، ج١، ص ١٢٧ .

ورثة الأنبياء! .

وكانوا يبلغون رسالات الله ويخضونه، ولا يخشون أحداً غيره، وقد التقى بهم وتعلم منهم [١].

– وقد تتلمذ سيدنا بشر على يد الإمام الفضيل بن عياض، وأخذ عنه، وروى عنه كلاماً حكيماً، منه قول الفضيل: "لا تكتمل مروءة الرجل حتى يسلم منه عدوه، كيف والآن لا يسلم منه صديقه" [٢] .

وفي ذلك المعنى ورد عن سيدنا بشر قوله: "لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف تكون خيِّراً وصديقك لا يأمنك" [٣] .

وفي "طبقات الأولياء" أنه قال: "لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك [معاديك من المسلمين] وكيف يكون فيك خيرٌ وأنت لا يأمنك صديقك" [٤] .

– وكان على علاقة طيبة جميلة بالإمام أحمد، وذكر ابنه عبد الله أن أباه كان يجل ويحب بشراً، ويذكّره بالولي، القدوة، التابعي، عامر، بن عبد الله بن عبد قيس [٥]. فقال الإمام أحمد: "إني لأَذْكر به عامر بن عبد الله" [٦] . أي

---

(١) الدكتور/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر بن الحارث الحافي"، مرجع سابق، ص ٢٢ ــ ٢٥، وص٣٢، و"سير أعلام النبلاء"، ج١٩، ص ٤٦٥ .

(٢)"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤١، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر بن الحارث الحافي"، ص ٤١، ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٧ .

(٤) انظر: "طبقات الأولياء"، ص ١١٠، ١١١ .

(٥) هو أبو عبد الله، البصري، عامر بن عبد الله بن عبد قيس، التابعي، المجاهد، المنفق، آية في قوة العبادة والذكر والزهد، والحكمة، تلميذ أبي موسى الأشعري، واقتدى به في النسك والتعبد، ومنه تلقي القرآن، روى عن عمر وسلمان، وروى عنه الحسن البصري وابن سيرين وغيرهم، توفى عام ٥٥ هـ في خلافة معاوية، ﷺ. انظر" "حلية الأولياء"، ج٢، ص ٨٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج ص ، و"صفة الصفوة":، ج ٣، ص ٢٠١ .

(٦) "تاريخ بغداد"، للخطيب البغدادي، تحقيق: د/ بشار عواد، ط. دار الغرب الإسلامي،

يثني عليه ويشبهه بالتابعي الكبير عامر بن عبد الله !.. وبلغ سيدنا بشر في العلم والتزكية مبلغاً عظيماً، جعل الإمام أحمد حينما سأله عامر بن غنام[١]: من أسأل؟. قال: "بشر بن الحارث" [٢] .

وستأتي أخبار أخرى في البحث عن قوة علاقتهما وتحابهما في الله !! .

ومن شيوخ سيدنا بشر المربي الكبير على بن الجرجاني الزاهد

وقد سكن جبل لبنان ، بالشام ، وقد لقيه بشر بلبنان ، وأوصى بشراً بقوله : "عانق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعَادِ الهوى ، وخالف الشهوات ، واجعل لحدك أحلى من بيتك يوم تنتقل إليه".

ويذكر سري السقطي [٣] أنه أراد الخروج من بغداد إلى "عبادان" [٤] ، ليرابط بها ، ويصوم بها رجباً وشعبان ورمضان ، فقابل العالِم الزاهد علي الجرجاني ، فوجد معه مزوداً به سويق من شعير يسف منه فسأله سري : ما دعاك إلى هذا ؟.

فعلمه ضرورة انتهاز الوقت واغتنامه بقوله : "إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة". هنا تعلم سري

بيروت، ٢٠٠٢م، ج٧، ص ٥٤٦، ٥٤٧ .

(١) عامر بن غنام: لم أجد له ترجمة .

(٢) د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٣٤ .

(٣) سري السقطي: هو السري بن المفلس، أبو الحسن، البغدادي، خال الجنيد وأستاذه، كان آية في الورع والعبادة والخشية، مات عام ٢٥٣هـ، انظر "مختصر تاريخ دمشق"، ج٩، ص ٢١٥ ـــ ٢١٧، و"صفة الصفوة"، ج١١، ص ١٣ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٦ .

ونوى الاقتداء بـه فقـال سـري : "فمـا مضـغت الخبـز منـذ أربعـين سنة !!" [١].

وطلب منـه سـري موعظـة يحفظهـا عنـه ، فقـال لـه : "نعـم ، إن شـاء الله ، احفـظ عنـي خمـس خصـال ، إنـك إن حفظتهـا لا تبـالي ما أضعت بعدها".

ثـم قـال الجرجـاني : "عـانِق الفقـر ، وتوسـد الصـبر ، وعـادِ الشـهوات ، وخـالف الهـوى ، وافـزع إلـى الله فـي جميـع أمورك".

فسأله سـري : "فـإذا كنـت كـذلك ؟". أي مـاذا أسـتفيد ؟. قـال لـه " يهب الله لكَ خمسـاً : الزهـد ، ومـع الزهـد القنـوع ، ومـع القنـوع الرضا ، ومع الرضا المعرفة ، ومع المعرفة الشوق".

وتـابع الجرجـاني : "ثـم يهـب لـكَ خمسـاً : السـباق والبـدار ، والتخفـف ، وحسـن البشـارة ، وحسـن المنقلـب إلـى الله ، أولئـك أحباء الله [٢].

وفي "تاريخ دمشق"، لابن عساكر [٣]بين أن سيدنا بشر قد تتلمذ في الحديث على مجموعة كبيرة من العلماء، منهم الأئمة: مالك بن أنس ، وسفيان الثوري، وابن المبارك، ووكيع وإسماعيل بن علية، وغيرهم .

– وقد حدَّث وروى عن كثير من العلماء ، منهم : حماد بن زيد [٤]والفضيل

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٦ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٦ .

(٣) ابن عساكر: هو أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله، ثقة الدين ابن عساكر، الدمشقي، المؤرخ الحافظ، الرحالة، كان محدث الديار الشامية، مولده ووفاته في دمشق، له كتب كثيرة في الحديث والتاريخ والأخلاق، ولد عام ٤٩٩هـ، وتوفى عام ٥٧١هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ، ص .

(٤) حماد بن زيد: بن درهم، الأزدي، البصري، الضرير، أبو إسماعيل، كان من أهل

بن عياض[١]، والمعافى بن عمران، وعلي بن مسهر[٢]، وخالد بن عبد الله الطحان، وعيسى بن يونس، وشريك بن عبد الله[٣]، وغيرهم .

- وقد ذكر سيدنا بشر واقعة له أثناء طلبه الحديث ومدارسته له مع إخوانه العلماء المحدثين، فقال: "رحلت إلى عيسى بن يونس [٤]، ماشياً على قدمي، فأكرمني وأدناني، ثم قال: "معك شيء تسأل عنه؟. قلت: نعم. حديث الحسن عن عائشة. فقال: نعم. حدثنا عمرو بن عبيد المحدث المذموم عن الحسن عن عائشة أنها قالت: "يا رسول الله، هل على النساء قتال؟. قال: نعم، جهاد، لا قتال فيه؛ الحج والعمرة" [٥] .

- وذكر واقعة أخرى مع حديث آخر. قال: رحلت إلى عيسى، ماشياً على قدمي، فأكرمني وأدناني، وقال لي: "ما الذي أقدمك؟." قلت: "أحببت لقاءك، والنظر إليك!." قال: "يا أخي، ومن أنا، وأي شيء عندي، ما أُحسنُ" !." ثم

الورع والدين، والعلم الغزير بالسنة والآثار، الحافظ، الثقة، توفى عام ١٩٦هـ. انظر "شذرات الذهب ..."، ج٢، ص ٣٥٤ .

(١) الفضيل: هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، الخراساني، التميمي، كان قدوة عظيمة في العلم والعبادة، والتقوى، له مواقف وحكم ووقائع مليئة بالحكمة والفقه العميق، أسند الفضيل عن جماعة من كبار التابعين، وروى عنه خلق كثير من العلماء الكبار، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٢، ص ٤٢١، ٤٢٢ .

(٢) علي بن مسهر: هو العلامة الحافظ، القرشي الكوفي، ثقة، صدوق، قاضي الموصل، مات عام ١٨٩هـ. انظر "شذرات الذهب"، ج١، ص ٣٢٥ .

(٣) شريك بن عبد الله: هو أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، العلامة الحافظ، أحد العلام، ورع، فقيه، عابد. انظر "تذكرة الحفاظ"، ج٢، ص ٢٣٢ .

(٤) هو الإمام القدوة، الحافظ، الحجة، أبو عمرو، عيسى بن يونس ابن أبي إسحاق، عمرو بن عبد الله، المرابط، الكوفي، واسع العلم، كثير الرحلة، غزا ٤٥ مرة، وحج كذلك، مات عام ١٨٧هـ، "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٣٠، و"شذرات الذهب"، ج٢، ص ٣٢٠ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج ٨، ص ٣٥٧ .

قال: "معك شيء تسأل عنه؟". قلت: نعم. حديث عبد الله بن عراك [١]بن مالك عن أبيه، فقال عيسى: نعم، حدثنا عبد الله بن عراك بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله – ﷺ –: "ليس على المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة". وروى له عيسى رواية أخرى للحديث [٢] .

وقد روى عنه مجموعة من العلماء، منهم سري السقطي، وعلي بن خشرم المروزي[٣] ، وإبراهيم بن هانئ النيسابوري، ونعيم بن الهيضم[٤]، وابنه محمد بن نعيم، وأبو حفص، ابن أخت بشر الحافي، وعمر بن موسى الجلاء[٥]، وغيرهم [٦] .

وكان بشر يحدّث، ويعلِّم من يأتيه، لطب الحديث والعلم .

وكان في تعليمه مزكياً لهم ومربياً، ويطلب منهم العمل بما يتعلمون، يبين ذلك أحد تلامذته فيقول : "كنا بباب بشر بن الحارث، فخرج إلينا، فقلت: يا أبا نصر، تحدثنا؟.

فسألهم: أتؤدون زكاة الحديث؟.

---

(١) عبد الله بن عراك، بن مالك الغفاري، . انظر "التاريخ الكبير"، للبخاري، ج٥، ص ١٠٩ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٦ .

(٣) هو: علي بن خشرم بن عبد الرحمن، المروزي، ابن عم بشر، وقيل: ابن أخته، محدث، ثقة، مات عام٢٥٦هـ . انظر: "تاريخ الإسلام"، ج٦، ص ١٢٥ .

(٤) نعيم بن الهيضم، الهروي، نزيل بغداد، ثقة، من ثقات شيوخ البغوي، مات عام ٢٢٨هـ. انظر "العبر في خبر من غبر"، ج١، ص ٣١٧ .

(٥) عمر بن موسى الجلاء، أبو حفص، روى عن بشر أحاديث مسندة وحكايات. انظر" تاريخ بغداد"، للخطيب البغدادي، ج ١٣، ص ٥٤ .

(٦) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٠ ــ ٥٤١، و"تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ط. دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م، ج١، ص ١٧٧ ــ ١٧٩، و١٨٢،و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٥، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر بن الحارث الحافي"، ص ٤٣ ــ ٤٥ .

قالوا مندهشين: يا أبا نصر، وللحديث زكاة؟! .

فأجاب: نعم، إذا سمعتم، عملاً، أو صلاةً أو تسبيحاً، استعملوه"! .

وفي روايـــة: "أدوا زكاة الحديث، فاستعملوا من كل مائتي حديث خمسة[١]أحاديث" [٢].

وعندما سأله أحد طلابه عن حديث، ذكره له، ثم نصحه بإخلاص عمله وطلبه لله، فقال له: "اتق الله، فإن كنت تريده للدنيا، فلا تُرِدْه، وإن كنتَ تريده للآخرة فقد سمعت!""[٣] .

ولما قيل له: يقولون: إنك لا تحفظ الحديث!!.

قال: أنا أحفظ حديثاً واحداً، إذا عملت به فقد حفظت الحديث كله، قال النبي - ﷺ-.: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" [٤] .

---

(١) لعله يقصد الأحاديث الواردة في النوافل والترغيب فيها، أما الواجبات فيجب العمل بجميعها .

(٢) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٣، و"تاريخ بغداد"، ج ٧، ص ٥٤٦، و"مختصر تاريخ دمشق"، ج٥ ص١٩٣ .

(٣) "تاريخ بغداد"، ج ٧، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .

(٤) "مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص ١٩٣ ، بتصرف يسير !.

المبحث الثاني :

ب- حياته الشخصيـــــة وطعامه وشرابـــــه

رسم سيدنا بشر لنفسه طريقة في حياته، اقتبسها من سيرة رسول الله - ﷺ - ومن حياة الزاهدين من الصحابة، ومن اقتدائه بمجموعة من شيوخه وأقرانه، طريقة مليئة بالتقشف والتقلل من متاع الدنيا بقوة، ودرجة كبيرة، لا يقوى عليها الكثيرون! (١) .

ويصور شيئاً من ذلك عبد الله بن أحمد بن حنبل بقوله: "رأيتُ بشر بن الحارث، منصرفاً من جنازة مرت علينا، فقمت لأنظر إليه، فرأيتُ عليه ثياباً متواضعة ــ أظن كان عليه فرو ــ، وإذا رجل مهيب طويل الشعر، أبيض الرأس واللحية، وفي رأسه ولحيته شيء من سواد، أحسب البياض أكثر من السواد، لا يخضب بشيء، أحسب عليه إزاراً إلى ها هنا، قصير" (٢) .

- ويذكر لنا سليمان بن حرب شيئاً آخر من هيئة سيدنا بشر ولباسه وطعامه، فيقول: "مكثتُ دهراً أشتهي أن أرى بشر بن الحارث، فلم يُقدَّرْ لي، فخرجتُ يوماً من منزلي إلى المسجد، فإذا أنا برجل كثير الشعر، طويل الشارب، عليه أطمار، معه جراب، ...، يُدخِل يده في الجِراب، فيُخرج منه كِسَراً، فيأكل ...." (٣) .

- ولم يُقدر لسيدنا بشر الزواج، وقد سئل: لو تزوجت، ثم تنسكْت؟. " فأجاب: " أخاف أن تقوم بحقي، ولا أقوم بحقها!. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] (٤)".

---

(١) انظر في ذلك: "تاريخ بغداد ..."، ج٧، ص ٧٨، ٧٩، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ١٩٥ ــ ١٩٧، وط٢٠،

(٢) "حلية الأولياء"، ج ٨، ص ٣٤٤، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ١٠١، ١٠٢ .

(٣) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص١٨٨ .

(٤) "المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق، ص ٥٠ .

وكان له كلمة، تبين عدم الإقدام على الزواج، بالإضافة لما سبق، فقد سئل: لم لا تتزوج؟.

فأجاب: "المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا لم أبلغ مبلغ الرجال، فللقوم أوان يعرفون به أوان استحقاق التزويج" .

وبين الإمام الخواص [١] القول السابق لبشر بقوله: "وأوانه أن يبلغ إلى حدٍّ لا يشغله عن الله شاغل" .

وبين الإمام الشعراني [٢] أن هذا الكلام من الخواص، وفعل بشر ، إنما يتعين حمله على من لم تتق نفسه إلى التزوج، ولم يخف الفتنة، بقرائن الأدلة الشرعية، وإلا فيستحب له التزوج ، وقد يجب ! [٣] .

عمله بالغـــــزل وقناعته

كان يعمل المغازل فيبيعها ، فذاك كسبه، حتى مات [٤] .

وكان قانعاً برزقه، مستمتعاً بقناعته، يجد فيها عزته وراحته، وقال في ذلك: "لو لم يكن في القنوع إلا التمتع بالعز ، كفى صاحبه شرفاً" [٥] .

وأنشد يقول:

أقسمت بالله، لَرضخ النوى * وشرب ماء القلب المالحهْ

---

(١) هو زاهد أهل الشام في زمانه، أبو أيوب، كان أكثر مقامه ببيت المقدس، كان مشهوراً بتحري الحلال ودقة الورع، انظر: "تاريخ الإسلام"، ج٤، ص ٣٨٢ .

(٢) الإمام الشعراني: هو العالم، الزاهد، الفقيه، المحدث، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري ، ولد عام ٨٩٨هـ، ومات عام ٩٧٣هـ، ولد في مصر، من كبار رجال الصوفية، له مصنفات عديدة، بلغت ثلاثمائة ــ رحمه الله ــ. انظر كتاب "شذرات الذهب ..."، ج٨، ص ٤٣٧ ــ ٤٣٩ .

(٣) "الكواكب الدرية"، للطوسي، ج١، ص ٥٥٨ .

(٤) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ٢٠١ .

(٥) المرجع السابق، ج١٠، ص ٢٠٦، ٢١٤ .

أعز للإنسان من حرصه * ومن سؤال الأوجه الكالحهْ [١]

قالوا: رضيت بذا، قلت: القنوع غنىً * ليس الغنى كثرة الأموال والورِق

رضيتُ بالله في عسري ويسري * فلست أسلك إلا أوضح الطرِق

ومما أنشده في هذا المعنى:

أفادتني القناعة أي عز * ولا عز أَعَزُّ من القنـــاعهْ

فخد منها لنفسك رأس مال * وصيّر بعدها التقوى بضاعهْ

تحز حالين: تُغنى عن بخيل * وتسعد في الجنـــان بصبر ساعهْ

وقال: "مروءة القناعة أشرف من مروءة البذل والعطاء" [٢] .

ولما قيل له: "بالله يا أبا نصر، أيهما أحلى: الدنانير أم الدراهم؟"

أجاب مبيناً شخصيته العظيمة : "الطاعة والله أحلى منهما جميعاً" [٣] .

---

(١) :تاريخ دمشق"، ج ١٠، ص ٢١٤، ٢١٨ .

(٢) "تاريخ دمشق" ، ج١٠، ص ٢١٨، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٦، ٥٤٧ .

(٣) "تاريخ بغداد: ج٧، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .

الفصل الثاني :

مبادئ نجاح الداعية المربي ، من خلال شخصية الإمام بشر

المبحث الأول :

علاقة قوية بالله ، وإخلاص له ، وخشية منه ، وتواضع لمولاه.

- تبين ذلك سيرته وحياته، ومن ذلك ما حدث به حمزة بن دهقان[١]، عن موقف وليلة مع بشر، فيقول: "قلتُ لبشر بن الحارث:" "أحب أن أخلُو معك". رد عليه بشر: إذا شئت!"

فشاركه الخلوة، فوجد بشراً قد دخل قبةً فصلى أربع ركعات بخشوع وأداء حسن. وسمعه يدعو في سجوده بقوله: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إليَّ من الشرف[يقصد التواضع أحب إليه من الترفع على الناس]، اللهم إنك تعلم أن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى. اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئاً" .

فسمعه عباس، وأخذ بشر يبكي بصوت مسموع، فلما سمعه بشر قال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا ههنا لم أتكلم!" [٢] .

إن سيدنا بشراً طبق ما قاله: "أكتفي ــ والله ــ بعلم الله"، فلم يحب أن يُدخل مع علم الله غيره [٣].

- وكان لسيدنا بشر فقه وذكاء بشر في الدعاء ، وتربية به ، ومن دلائل ذلك ما كان يدعو به فيقول : "اللهم استر ، واجعل تحت الستر ما تحب ، فربما سترتَ على ما تكره" ، قص ذلك زريقاً الدلال ، الذي سمع هذا الدعاء من بشر ، فتعلمه ، ثم التفت إليه بشر : " يا أخي ، بادِرِ بادِرِ ، فإن ساعات الليل والنهار تذِهب الأعمار ". وخاطب كل مسلم بقوله : " الليل والنهار حثيثان ، يعملان فيك ، فاعمل فيهما ".

---

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) "صفة الصفوة"، ج١، ص ٤٧٦، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص٤٩٠ .

(٣) "تفسير القرآن المجيد"، ج ٢، ص ٥٢٧ .

- وحذر من اغترار العبد بستر الله ، وانهماكه في المعاصي ، مع فشو الذكر الحسن له رغم ذلك ، فقال في ذلك : " إياك والاغترار بالستر ، والاتكال على حسن الذكر" [١].

أما عن تواضعه وإخلاصه ، وانكساره لله فمن أبرز المواقف في ذلك ما حكاه محمد بن قدامة، من لقيا بشر رجلاً سكران، فجعل يقبّله ويقول: "يا سيدي، يا أبا نصر!" ولا يدفعه بِشر عن نفسه .

فلما ولىَّ الرجل دمعت وتغرغرت عينا بشر وقال: "رجل أحب رجلاً على خير توهمه!. لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حالُه!!" [٢] .

وحُكي عنه أنه قال: "ربما رفعتُ يدي في الدعاء، فأردها"، أو قال: "فأستلُّها!" .

إنه يفعل ذلك من باب شدة تعظيمه لربه ورؤية نفسه غير جديرة ــ أو لائقة بالدعاء والرجاء والطلب من الله، تصغيراً لها ورؤية نفسه مقصرة في حق ربه، وإجلالاً لقدر ربه! [٣] .

وفي روايـــة: "إني لأرفع يديَّ إلى الله ثم أردهـــا، وأقول: إنما يفعل هذا من له جاه عنده" [٤] .

- وقال لأحد لإخوانه:" ليت لا يكون حظي من الله هذا الذي يقول الناس: بشْر، بِشر!!". وبكى كثيراً .

وقال موضحاً رغبته الشديدة في رضا الله عنه، وابتغاء حبه : "لو علمتُ أنَّ

---

(١) "الكواكب الدرية .." ، ج١ ، ص٥٦١ .

(٢)"صفة الصفوة"، ج١، ص ٤٧٣، ٤٧٤، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ٢٠٣، ٢٠٤، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص٤٩١ .

(٣)المرجع السابق ، ج١، ص ٤٧٥ .

(٤)ابن قيم الجوزية "اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية"، تحقيق: زايد بن أحمد النشير، ط (١)، دار عالم الفوائد، مكة، ١٤٣١ه،، ج١، ص ٤١٧ .

رضاه أنْ أَشد في رجلي حجراً، ثم أُلقي نفسي في البحر لفعلتُ" [١]. وروى سماعه لخالد الطحان وهو يقول: "إياكم وسرائر الشرك" [٢] .

وفي قضية تواضعه والانكسار لله وعدم الخيلاء، ذكر علي بن خشرم أنه سمع بشراً

يقول منشداً:

خلتِ الديارُ، فسدتُ غير مسوَّد ومن الشقاء تفردي بالسؤدد [٣].

لقد حرص سيدنا بشر على بيان أهمية إخلاص القلب لله في العبادة وشئون الحياة، ولذا لما قال رجل لبشر: "أين أعبد الله؟. قال له: "أصلِح سريرتك، واعبده حيث شئت" [٤].

– وورد عنه أنه كان عند الصلاة ينزوي في مكان غير ملحوظ، ويصلي، يفعل ذلك حتى لا يشير إليه الناس بالإكبار والإجلال، فيغتر بنفسه، ولما قيل له: ألاَ تصلي في الصف الأول؟. أجاب بقوله: "إنما يريد الله قرب القلوب، لا قرب الأجساد" [٥] .

إنه ينبه إلى الأهم، وهو الشعور بعظمة الله وقربه، وذوق حلاوة المناجاة لله، مع إتقان أداء العبادة بأركانها وشروطها وآدابها، وليس الاكتفاء بحضور الجسد فقط في الصف الأول!! .

وقد حدث أنه صلى يوماً، فأطال وأحسن، ورجل يصلي خلفه، ففطن إليه بشر، وقال له: لا يغرنك ما رأيت مني، فإن إبلـــيس تعبد آلاف سنين، ثم

---

(١)"صفة الصفوة" ص ٤٧٥، ٤٧٦ .

(٥) د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر"، مرجع سابق، ص ٥٧ .

ج

(٣) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٠ .

(٤)"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٥ .

(٥) "تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج١، ص ٢٠٢، و"الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٦٢ .

صار إلى ما صار إليه" [١]. وفي "الكواكب الدرية" أنه قال للرجل: "لا يعجبنك ما رأيتَ مني، فإبليس عبد الله مع الملائكة دهراً، ثم صار إلى ما صار إليه"[٢].

إنه يحذَر من دخول العجب إلى نفسه، والاغترار بإعانة الله على الطاعة، وظهوره في هيئة المحسن المطيع!، ويعلّم الرجل الذي رآه ضرورة الإخبات لله، والانكسار له، ورد الفضل له، في التحبيب في الطاعة وتيسيرها والإعانة عليها . رحمه الله ورضي عنه .

- ولما أثنى عليه بعض الناس لما مر بهم، فذكروا أنه لا ينام الليل، ويواصل الصيام، فلا يفطر إلا كل ثلاثة أيام، بكى، ولما سئل عن سبب بكائه، بين أن الله ألقى في قلوب الناس حبه وتعظيمه، وأراهم جميل حسناته، وأنه لا يصنع ما ذكروه من قوة عبادته، وقال: "إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة، ولا أني صمت يوماً ثم لم أفطر من ليلته؛ ولكن الله - سبحانه - يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد، لطفاً منه سبحانه وكرماً". ثم ذكر بسر ابتداء أمره ومن الله عليه بالهدايـــة، فضلاً منه، واجتباءً ومحض كرم [٣] .

وكان بشر لا ينام من الليل إلا قليلاً، يُرى بالنهار كأنه مهووس!، فسئل عن ذلك، فأجاب: أكره أن يأتيني أمر الله، وأنا نائم" [٤] .

وصدق حين قال: "نعم المنزل القبر، لمن أطاع الله" [٥] .

---

(١) "التيسير، شرح الجامع الصغير"، لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، ط. مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٩٨٨م، ج٢، ص ٣١٢ .

(٢) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٦٣ .

(٣) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢٠١، ٢٠٢، و"الرسالة القشيرية"، ص١٩ .

(٤) "المرجع السابق"، لابن عساكر، ج١٠، ص ٢١٠ .

(٥) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص٥٦٠ .

المبحث الثاني :
أخلاق عالية تميز بها .
المطلب الأول :
خشيته مخاطر الشهرة ،
وتفقده الدائم لنيته وسره .

كان سيدنا بشر يدرك أن طلب الشهرة والسمعة، والسعي لذلك مناقض للإخلاص والتقوى لله، ودليل على جهل بغوائل الشهرة، لذا زاره أحد طلابه وقعد معه كثيراً، ليتعلم ويتزكى، فسمع منه كلمة في هذا الشأن، هي قول سيدنا بشر له: "ما اتقى الله من أحب الشهرة!!" .

إنه التركيز على تطهير القلب وتزكية النفس من إرادة غير وجه الله، لطب حظوظ النفس من حب الثناء والسمعة والشهرة وغيرها .

وله مواقف دالة على كرهه الشهرة، وتخوفه من آثارها وخطرها .

من ذلك قوله: "لقد شهرني ربي في الدنيا، فليتَه لا يفضحني في القيامة" .

وقوله: "غنيمة المؤمن غفلةُ الناس عنه، وإخفاء مكانه عنهم" .

- وعندما أراد أحد أحبابه من المشايخ زيارته، لشدة شوقه إليه، ورجاء الانتفاع برؤية بشر، رد عليه بالرفض، معللاً ذلك بالتخوف من الشهرة بذلك عليه وعلى مريد الزيارة .

قص ذلك بشر نفسه بقوله: بعث إليَّ عاصم بن علي، بأبي زكريا الصفار[١]، فقال: يا أبا نصر، إن أبا الحسن [عاصم]، يقرأ عليك السلام ويقول: "قد اشتد شوقي إليك حتى لقد كدتُ أن آتيك، من غير إذن، فعلمتُ كراهيتك لمجيء الرجال، فإن رأيتَ أن تأذن لي، فآتيك لأسلم عليك، فلعل الله أن ينفعني

---

(١) لم أجد هذا الاسم، ووجدت أبا يعقوب، الصفار، يوسف بن يعقوب، الكوفي، مولى بني هاشم، وقيل: مولى بني أمية. انظر "موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله"، جمع وترتيب مجموعة باحثين، ط. عالم الكتاب، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٧٤ .

برؤيتك" .

فقلت له: "قد فهمتُ رسالة الشيخ، فأبلِغه السلام، وقل له: لا تأتيني، فإن مجيئك إليَّ شهرة عليّ وعليك" .

وقال آخر: كنا قعــوداً قدَّام بشر بن الحارث نفْسين، فجــاء الثالث، فقام بشر فدخل! [١] .

لذا كان يرى أن الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد، وبين سبب ذلك فقال: "ذاك يركب ويرجع ويراه الناس، (يقصد الحاج والمعتمر والمجاهد]. وهذا يعطِي سراً، لا يراه إلا الله – ﷻ – " [٢] .

ومن أخطر كلماته في هذا الشأن، وهو كلام خبير موفق، قوله: "لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس" [٣] .

وخاطب كل مسلم بقوله: "لا تعمل لتذكر، وردِ الله ما يريد" [٤] .

– ونصح كل مؤمن بالهرب من الشهرة وتبعاتها، فقال: "إذا عُرفت في موضع فاهرب منه، وإذا رأيت الرجل إذا اجتمعوا إليه في موضع لزمه واشتهر، فهو يحب الشهرة" [٥]. ومن خلال تجربته في أمر الشهرة أدرك أنه وجد عاقبة من قصدها وأرادها الافتضاح

وذهاب دينه، فقال: "لا أعلم رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه، وافتضح"[٦] .

وحقاً ما قال من أن: "سكون النفس إلى المدح وقبول المدح أشد عليها من

---

(١) "صفة الصفوة"، ج١، ص٤٧٣. و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢٠٣، و"حلية الأولياء ..."، ج٨، ص٣٤٦ .

(٢) "صفة الصفوة"، ج١، ص٤٧٧، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٩ .

(٣) "الرسالة القشيرية"، ص ٥١، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٢.

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٦ .

(٥) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ٢٠٦ .

(٦) "حلية الأولياء ..."، ج٨، ص ٣٤٣ .

المعاصي" [١] . وكم خشي الرياء وحذر منه، ومن صورة لا يلتفت إليها الكثيرون، فقال: "قد يكون الرجل مرائياً بعد موته!، يحب أن يكثر الخلق في جنازته" [٢] .

وقد ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل أن ابن أخت بشر، عمر حدثه أن رجلاً سأل عن خاله بشر، فخرج إليه سيدنا بشر وسأله عن حاجته، فقص على بشر رؤيا تبشره برضا الله عنه وحبه له، فقال له:"إني رأيت رب العزة تعالى في المنام، وهو يقول لي: يا بِشْر،لو سجدت لي على الجمر ما أديْتَ شكري، فيما قد بثثت لك أو نشرتُ لك في الناس من محبة".

فسأله بشر: أنت رأيتَ هذا؟، قال: نعم، رأيتُه ليلتين متواليتين! .

فقال له بشر: "لا تخبر به أحداً!". ثم دخل بشر وولى وجهه إلى القبلة، وجعل يبكي ويضطرب، ويقول: اللهم إن كنتَ شهرتني في الدنْيا، ونوهْتَ باسمي، ورفعتني فوق قدري على أن تفضحني في القيامة، الآن فعجِّل عقوبتي، وخذ مني بقدر ما يقوى عليه بدني" [٣] .

ولما مر بعد صلاة جمعة بأحد الدروب، وإذ بصبيان يلعبون يصيحون: بشْر، بشْر. دلالة على معرفتهم له وحبهم له، وقف بشر ، معاتباً نفسه، محاسباً لها من إرادتها الفخر والعجب، وقال لمن معه – معلّماً –: "أي قلب يقوى على هذا؟." ثم أقسم ألا يمر بهذا الدرب مرة أخرى، وقال: "إن هذا الدرب لا مررتُ فيه حتى ألقى الله – ﷻ –" [٤] .

– وقد قص سيدنا بشر على أيوب العطار واقعة حدثت له ، رأى فيها جميل ستر ربه عليه ، وإنعام الله عليه بالذكر والسمعة الحسنة وفضلاً منه تعال وكرما وإحسانا.

---

(١) المرجع السابق، ج٨، ص ٣٤٤، و"تاريخ دمشق،، ج١٠، ص ٢١٠ .

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج١٩، ص٤٦٦، و"تاريخ الإسلام، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٣ .

(٣) "تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٧، و"تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج١٠، ص٢١٩ .

(٤) المرجع السابق، ج٧، ص٨٠، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ٢٠٣ .

يحكى ذلك أيوب ، فيقول : "كنت خارجاً من (باب حرب) ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا بشر الذي يصلي كل يوم ألف ركعة ، ويواصل في كل ثلاثة أيام، والله يا أيوب ، ما صليت ألف ركعة ، يوماً واحداً ، ولا واصلت قط"[١].

(١) "الرسالة القشيرية" ، ص١١.

المطلب الثاني :

زهده في الدنيا، وتحري الحلال .

كان – رحمه الله – متقللاً من الدنيا، ولا يعلق قلبه بها .

لذا حرص على أن يكون زاده من الطعام قليلاً، يكفيه، فلم يتوسع في المباحات، فكان له رغيف في كل يوم، مع حرص على المال والطعام واللباس الحلال الصافي. وقال في ذلك: "طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره" .

وله في تحري الحلال بدقة، مواقف كثيرة [١] .

وكان كثير الصيام ويراه ضرورياً لصلاح المسلم فإنه: "يصفي الفؤاد، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق" [٢] .

– وكان يرى ضرورة تحري المؤمن الحلال في طعامه وشرابه ومسكنه، قبل كلامه في أمور الدين، والتصدر للتعليم، حتى يثمر تعليمه وينفع .

يقول في ذلك: "ينبغي للرجل أن ينظر خبزه من أين هو، ومسكنه الذي يسكنه أهله، من أي شيء هو؟ ثم يتكلم" .

وقال في ذلك ــ أيضاً ــ: "ينبغي للإنسان أن ينظر إلى مسكنه، أين يسكن، وفي مطعمه، من أين هو، ثم ينظر في لسانه ..." [٣] .

– وأوصى من طلب منه نصيحة بقوله: "أخمِل ذكرك، وطيِّب مطعمك" [٤].

ولما سأله سليمان بن يعقوب عظة، قال له: "انظر خبزك من أين هو؟، ولا تعرّضْ لحمك للنار" [٥]. إنه تطبيق لتوجيه وأمر النبي – ﷺ – القائل: "وأيما

---

(١) "صفة الصفوة"، ج١، ص٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦ .

(٢) "مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص ١٩٥ .

(٣) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ٢٠١، ٢٠٦ .

(٤) "الورع"، لابن أبى الدنيا ، ص ٨٨ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٩، و"الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٥٩، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر الحافي". ص ٨٧ .

عبد نبت لحمه من السحت والربا ، فالنار أولى به" [١].

وما أحكمه حين بين أن "من ضبط بطنه فقد ضبط الأخلاق الصالحة كلها"[٢] .

وقد أوتي سيدنا بشر قدره هائلة على ترك الشهوات، والانتصار عليها، لدرجة أن العالم عبد الوهاب الوراق[٣]، قال من خلال معيشته مع سيدنا بشر وخبرته بحياته في هذا الشأن-: "ما رأيتُ أحداً أقدر على ترك شهوة من بشر الحافي" [٤] .

- لقد حذر من حب الدنيا المبعدة عن الله، المنسية لذكره، الملهية للقلوب، وبين أن من أحبها حرم لذة العبادة، فقال: "لا يجد من يحب الدنيا حلاوة العبادة" [٥] .

وقال: "ينبغي لنا ألا نحب هذه الدار، لأنها دار يعصَى الله فيها، ووالله لو لم يكن فيها إلا أننا أحببنا شيئاً أبغضه الله لكفانا" [٦] .

وقال في ذلك: "ليس من المروءة أن تحب ما يبغض حبيبك" [٧] .

وحذر مريد الدنيا، من لحوق الذل به وهوانه، وقال: "قل لمن طلب الدنيا تهيأْ للذل" [٨]. وقال: "ما أجفى صاحب الدنيا، وأصفق وجهه" .

---

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط"، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم ، ط دار الحرمين ، القاهرة ، د.ت ، ج٦ ، ص٣١٠ ، من اسمه محمد.

(٢) "المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق .

(٣) عبد الوهاب الوراق: عبد الوهاب بن الحكم بن نافع، أبو الحسن الوراق، شامي الأصل، صحب الإمام أحمد ،وسمع منه ومن غيره، روى عنه كثيرون، كان من الصالحين العقلاء، أثنى عليه الإمام أحمد وغيره، توفى عام ٢٥٠ أو ٢٥١هـ . انظر" تاريخ بغداد"، ج١١، ص ٢٥، و"سير أعلام ..."، ج١٢، ص٣٣٣ .

(٤) "مختصر تاريخ دمشق، ج٥، ص ١٩٥، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ١٩٩ .

(٥) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص ٢١٠ .

(٦) المرجع السابق، ج١٠، ص ٢٠٠ .

(٧) "مختصر تاريخ دمشق"، ص ٢٠٥ .

(٨) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٠، و"وفيات الأعيان"، ج١، ص ٢٧٥ .

وصدق حين ذكر أن: "الفكرة في أمر الآخرة يقطع حب الدنيا ويذهب شهواتها"[١] .

- وبين أن حب العالم للدنيا وإيثارها على الآخرة يؤدي إلى عمى قلبه، ويذهب حب الآخرة من قلبه، فقال في ذلك: إذا أحب [العالم] الدنيا عمى بصر قلبه" .

وقال: "من حزن على الدنيا ذهب حزن الآخرة من قلبه، ومن أحب الدنيا للدنيا ذهب حب الآخرة من قلبه" [٢] .

وحذر من طول حساب من همه الدنيا فقط، فقال: "من سأل الله تعالى الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف" [٣] .

وبين قبح من طلب الدنيا بعمل الآخرة، وحكى في ذلك قول سفيان الثوري: "إن أقبح الرغبة أن تُطلَب الدنيا بعمل الآخرة" [٤] .

وحقاً ما رآه من كون "أسدّ الأعمال ثلاثة: الجود في القِلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويُرجَى" [٥] .

- إن حصول العالم على حب الناس يأتي من خلال حب الله له وصدقه، وزهده فيما في أيديهم، وشهودهم عفته وترفعه عن المطامع، وقد بين ذلك سيدنا بشر لرجل سأله: "يا أبا نصر، ما أشد حب الناس لك؟". فساء السؤال بشراً، ورد عليه بقوله: "ولك، عافاك الله".

ووضح له السبيل لهذا الحب والتقدير بقوله: "دع لهم ما في أيديهم" [٦] .

وهذا تطبيق لنصح وتعليم رسول الله ــ ﷺ ــ، القائل: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" [٧] .

---

(١) "المنتقى من طبقات الأولياء، مرجع سابق، ص ٥٢ .

(٢) "وفيات الأعيان"، ج١، ص ٢٧٥، و"المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق .

(٣)"حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٣٧ .

(٤) المرجع السابق، ج٨، ص ٣٤٣ .

(٥) "الكواكب الدرية ...."، ج١، ص ٥٦٢، و"العارف بالله، بشر ..."، ص ٥٩ .

(٦) رواه

(٧) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ١٩٩، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر ..."، ص ١٠٠، ١٠١. حديث حسن، رواه ابن ماجه، رقم: ٤١٠٢، وغيره بأسانيد حسنة .

المطلب الثالث :

عزة نفسه وعفته .

- إن أول ما يتجلى في توجيهاته هو إرادته ودعوته إلى العزة في الدنيا والسلامة في الآخرة، وكان تحقيق هذه الأمور في طليعة هواجسه وهمومه .فكان يقول لإخوانه: "من أحب العز في الدنيا، والشرف في الآخرة، فلتكن فيه ثلاث خصـــال: لا يسأل أحداً شيئاً ، أو حاجة، ولا يذكـــر أحداً بسوء،ولا يجيب أحداً إلى طعامه" [١]. وفي رواية: "فلا يحدث، ولا يشهد، ولا يؤم قوماً، ولا يقبل لأحد هدية" [٢] . إنه يرى البعد عن رواية الحديث وعدم الزج بالنفس في الشهادة أمام القضاة، وترك الشهرة بإمامة الناس، وعدم قبول هدية أو دعوة لطعام، حتى لا يصبح أسيراً للناس، مقابل ذلك، فيلزمونه بخدمة مصالحهم ومآربهم الدنيوية، أو يكتم نصحه وتوجيهه لهم . وقد أنشد في ذلك أبياتاً جليلة، مليئة بكرم نفسه وعزته وعفته وتقواه وعظمته، جاء فيها قوله:

أقسمتُ بالله لرضخ النـــــوى [٣] *وشرب ماء القلب [٤] المالحهْ

أعزُّ للإنسان من حرصـــــه * ومن سؤال الأوجه الكالحـــهْ

فاستشعر اليأس [٥] تكنْ ذا غنىً * وترجعنْ بالصفقة الرابحـــهْ

فالعز يأسٌ، والتقـــى ســـــؤدد * وشهوة النفْس لها فاضحـــهْ

من كانت الدنيا به بَـــــــــرةً * فإنها يوماً له ذابحهْ [١]

---

(١) "طبقات الأولياء"، ص ١١١، ١١٢ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج٢، ص ٣٤٤، و"طبقات الأولياء، ص ١١١. وانظر" "بشر بن الحارث ، المحدث الزاهد" سلسلة أعلام الفقهاء، رقم (٣٧)، للأستاذ/ عصام محمد الحاج علي، ص ٢٨٣، دار الكتب العلمية، بيروت،ص٢٨٣.

(٣) رضخ النوى: كسره ودقه .

(٤) القلّب: جمع القليّب وهو البئر .

(٥) في "الحلية"، "فاستغن باليأس"، و"اليأس عز ..." .

- وفي مجال تبغيض الدنيا والتحبيب في عدم الركون إليها كان يردد:

مكرِم الدنيا مهـــــانْ * مستذل في القيامـــــهْ

والذي هانت عليـــه * فله ثَم كرامـــــــــهْ [٢]

([١]) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢١٤، ٢١٥، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٦، وجاء في الحلية: "فاستغن باليأس...، فاليأس عز"، وورد في تاريخ بغداد: "فاستغن بالله،. و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص ١٧ .

([٢]) المرجع السابق، ج١٠، ص ٢١٨ .

المبحث الثالث : قيامه بالدور الاجتماعي التربوي .

المطلب الأول : إحساسه القوي بالمحرومين، ونصرته للمظلوم .

- تميز الإمام بِحس وشعور إنساني راق، يتألم للمحرومين ويشعر بهم، ويواسيهم بكل ما يقدر عليه، وينصر المظلوم، ويتصدى للظالمين .

ومن أجمل ما حَكى عنه، أنه رآه البعض في الشتاء جالساً في بيته يرعد، وثوبه معلق على المِشجَب، فقال له من كان معه: "في مثل هذا الوقت تنزع الثوب"، أو معناه .

فرد سيدنا بشر: "يا أخي، الفقراء كثير، وليس لي طاقة مواساتهم بالثياب، فأواسيهم بتحمل البرد، كما يتحملونه!!". وفي "طبقات الأولياء" ، قال : أنه قال "ذكرت الفقراء وما هم فيه، ولم يكن لي ما أواسيهم به، فأردت أن أواسيهم، بنفسي في مقاساة البرد" [١] .

ولهذا كان بعض الصالحين عندما يأكل يقول: "اللهم لا تؤاخذني بحق الجائعين" [٢].

- ومرة مَرَّ سيدنا بشر برجل أمسك بامرأة، وبيده سكين ، يريد إيذائها ، وإن حاول أحد تخليص المرأة التي تصرخ من يده، يهاجمه، فمر به بشر وحك كتفه بكتف الرجل، فسقط الرجل، وخُلصت المرأة، وسأل ناس الرجل: "ما حالك؟؛ كيف حدث لك ذلك؟". فأجاب: "لا أدري، لكن حكني شيخ وقال: الله ناظر إليك، فوقعت من هيبته". وقد حُمَّ الرجل من وقته، ومات في اليوم السابع! [٣] .

---

(١) "طبقات الأولياء"، ص ١١٥ .

(٢) "مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح"، لعلي بن سلطان محمد الهروي القاري، ط (١)، ٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص ١٣٦٠ .

(٣) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٦٤، ٥٦٥ .

المطلب الثاني :

الفهم العميق للقضايا ،

ولفقه الأولويات .

أنعم الله عليه بعقل كبير، وفهم سديد، وحكمة عظيمة، وشهد له أئمة كبار بذلك، منهم إبراهيم الحربي الذي قال: "ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه، ولا أحفظ للسانه منه، ما عرف له غيبة لمسلم، وكان في كل شعرة منه عقل، ولو قُسم عقلُ بشر على أهل بغداد صاروا عقلاء!. وما نقص من عقله شيء" [١] .

وكذا الإمام أحمد شهد بذلك، فقال عن تميز سيدنا بشر بعقله وحكمته: "سبحان الله، ما أعقله، من قرنه إلى قدمه عقل" [٢] .

مواقف دالة على وفور عقله وإدراكه فقه الأولويات

لسيدنا بشر موقف مع رجل أراد أن يحج نافلة، فنصحه بإنفاق المال على الفقراء والمساكين والمحتاجين، بدلاً من حجه! .

هذا الموقف يبين سداد وصحة فهم سيدنا بشر للدين والأولويات الواجب مراعاتها في أداء الأعمال، فلا يقدم نفل على فريضة، ولا يقدم مندوب على واجب! .

هذا الموقف حدث حين جاءه رجل يودعه لذهابه للحج، وقال له: "قد عزمتُ على الحج، أفتأمرني بشيء؟". فقال له بشر: "كم أعددت للنفقة؟" .

قال: "ألفي درهم". قال بشر له: "فأي شيء تبتغي بحجك، نزهة، أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله – ﷻ–؟" .

قال الرجل: "ابتغاء مرضاة الله – ﷻ –" .

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٩١، و"البداية والنهاية"، ج١٠، ص ، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٦، ٥٤٧ .

(٢)"المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق، و"تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص٣٨١ .

فقال له بشر ــ معلماً وموجهاً له إلى واجبات كثيرة متروكة، يغني أداؤها عن النافلة، وفروض كفائية مهملة وظاهر التقصير في القيام بها ــ :"فإن أصبتَ مرضاة الله وأنتَ في منزلك، وتنفق ألفيْ درهم، وتكون على يقين مرضاة الله -ﷻ-. أتفعل؟" .

قال الرجل: "نعم". فعرض عليه بِشر عدداً من الواجبات، فقال له: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مدين يقضي ديْنه. وفقير يرم شعثه. ومعيل يُحيي عياله. ومربي يتيم يفرحه"[١] .

وتابع بشر نصحه وتعليمه: "وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد فافعل؛ فإن إدخالك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغيث لهفاناً، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيف اليقين، أفضل لك من مائة حجة، بعد حجة الإسلام. قم فأخرجْها كما أمرناك، وإلا قل لنا ما في قلبك!!".

هذا التعليم والتوجيه السديد، قابله الرجل بالرفض، فقال لسيدنا بشر: "سفري أقوى في قلبي!". فرد سيدنا بشر مستنكراً إصرار الرجل على فعله، وبين أن هذا التصرف نابع من حظ النفس وخديعتها، حين تزين للمرء فعل المندوب، وترك الواجب، وحين توجهه إلى ما يبدو عملاً صالحاً مفضولاً، لتشغله وتذهله عن وجوب تطهير ماله ونفسه من موبقات!! .

فتبسم بشر وأقبل عليه قائلاً: "المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس إلى أن تقضي به وطراً يشرع إليه، من الأعمال الصالحة الطاهرة ــ [خداعاً للنفس والناس]، وقد آلَى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين" .

– ومن الدلائل على عظيم إدراك سيدنا بشر للواجبات المطلوبة من المسلم حسب حاله وقدرته، ونعم الله عليه .

---

[١] "قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد"، لأبي طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي، ضبطها وصححها وعلق عليها: الشيخ الدكتور: عاصم الكيالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ، ج١، ص ١٦٥، ١٦٦ .

ما قاله عندما قيل له: "إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة!!" .
فأجاب: "المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره .
إنما حاله هذا [الذي يناسبه]: إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء" [١] .
وقال بعض العلماء: "من كان طلب الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومن شُغل بغيره عن نفسه، فقد مكر به" .
وقال الثوري: "إنما حُرموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شيء للعبد معرفته لنفسه ووقوفه على حده، وإحكامه لحاله التي أقيم فيها، فابتداؤه بالعمل بما فرض عليه، بعد اجتنابه ما نُهي عنه، بعلم يدبره في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض، لأن الفضل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال، فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب" . إن العبد – لجهله وضعف إدراكه للمسائل الشرعية – قد يقدّم النفل وهو يحسب أنه الواجب [٢] .
إن العالِم عند العلماء: "من علم خير الخيرين، فسبق إليه قبل فوته .
وعلم شر الخيرين، فأعرض عنه، لئلا يشغله عن الأخير منهما .
وعلم أيضاً خير الشرين، ففعله إذا اضطر إليه وابتلي به .
وعلم شر الشرين، فأمعن في الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه" .
وقال ــ صادقاً ــ: "وفي هذه المعاني دقائق العلوم، وغرائب الفهوم، وأدلة للسائلين، وعبرة وآيات للعالمين .فأما شر الشرين ومعرفــة الخير من الشر فهو معروفٌ بأدلة العقول وظاهر العلوم" [٣].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٦.
(٢) "قوت القلوب"، ج١، ص ١٦٣ .
(٣) المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٨ .

المطلب الثالث : حبـــه التذكير الدائم بالله ، والاعتبار بالأحداث

كان سيدنا بشر ينتهز الفرصة للتذكير بالله وفضله وإنعامه على عبده، ومن المواقف في ذلك قوله لصبي جميل، ــ مذكراً له بفضل ربه عليه بالجمال والحسن ــ: "إن الذي قدر على زينتك، قادر على صرف القلوب عنك" [١] .

وذات مرة مرض فدخل عليه قوم يعودونه، فقالوا له: على ماذا عزمت؟ قال: "عزمت أني إذا عوفيتُ تبتُ!؟". فقال رجل منهم: فهلا تبتَ الساعة؟. قال بشر: "يا أخي، أما علمتَ أن الملوك لا تقبل الأمان ممن في رجليه القيد!. وفي رقبته الغُل، إنما يُقبل الأمان ممن هو راكبٌ الفرس، والسيف مجرَّدٌ بيده!". فبكي القوم جميعاً! .

إنه يبين لهم أن التائب في صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده، وبيده سيف مشهور، فهو يقدر على الكر والفر والقتال وعلى الهرب من الملِك وعصيانه، فإذا جاء على هذه الحال بين يدي الملِك ذليلاً له طالباً أمانه، أحبه الملِك وجعله من خواصه، لأنه جاءه مختاراً طائعاً، راغباً في قربه وخدمته، أما من أسره الملِك وتمكن منه وفي رجليه قيد ومغلولة رقبته فإنه إذا طلب من الملِك الأمان، فإنما يطلبه خوفاً على نفسه من الهلاك، وقد لا يكون محباً للملِك، مؤثراً لرضاه، راغباً في خدمته وقربه!! [٢] .

إن التوبـــة من الصحيح، القادر على المعاصي، لكنـــــــه يتركها خوفاً من ربه ، سبحانه ، ورجاءً لثوابه، وإيثاراً لطاعته على معصيته، أعظم وأفضل ممن لا يتوب إلا في مرضه الشديد، وقد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه، ولذات دنياه، إن سيدنا بشراً يدعوهم للإسراع في التوبة، وعدم تأجيلها لوقت المرض والضعف، وضرورة استفراغ قدراتهم وطاقاتهم في

---

(١) "مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص ٢٠١ .

(٢) "روائع التفسير، التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي"، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي، جمع وترتيب: أبي معاذ، طارق بن عوض الله، ط (١)، ٢٠٠١م، دار العاصمة ، السعودية، ج١، ص ٣٠٠ .

العمل الصالح، في حياتهم وصحتهم وفراغهم، وتوفر نعم الله عليهم، قبل وقت المرض، وذهاب الصحة والمال والفراغ!! .

– وقد كان سيدنا بشر ذا عين مبصرة معتبرة، تتعلم مما تراه وتنتفع به، بما يقربها إلى الله ويذكرها بفضله .

– ومن المواقف الدالة على ذلك حين وقف على أصحاب الفاكهة فجعل ينظر لهم وللفاكهة، فقيل له: يا أبا نصر، لعلك تشتهي من هذا شيئاً؟

قال: لا، ولكـــن نظرت في هذا، إذا كان يُطعم هـــذا من يعصيه،فكيف من يطيعه؟ [١].

– ومن المواقف الدالة على تعظيمه نعمـــة الإسلام عليه وحمـــده ربه على ذلك، ولفت نظر الناس لذلك ما تحكيه أخته "زبدة" [٢]من دخوله عليها ليلة، فبقى يتفكر الليلة، فسألته: "في ماذا تفكرتَ طوال الليلة؟". قال: "تفكرت في بِشر النصراني، وبِشر اليهودي، وبِشر المجوسي، ونفسي واسمي بشر، فقلت: ما الذي سبق منكَ حتى خصك؟ [أي بالإسلام]. فتفكرت في تفضله عليَّ، وحمدتُه على أن جعلني من خاصته، وألبسني لباس أحبائه" [٣] .

---

(١) "صفة الصفوة"، ج١، ص٤٧٤، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢٠٧ .

(٢) زبدة أخت الإمام بشر ، تكني بأم علي ، أكبر سناً من بشر. ذات ورع وعبادة. انظر "طبقات الحنابلة" ، لمحمد بن أبى يعلي ، صححه محمد حامد الفقي ، ط ، مطبقة السنة المحمدية ، القاهرة ، د/ت ، ج١ ، ص٤٢٨.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص ٤٧٥، ٤٧٦، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ٢٠٢ .

المطلب الرابع :

صاحب مواقف من قضايا ،

ومشكلات مجتمعـــــه .

لقد وقعت تحولات هامة في حياة سيدنا بشر، أرادها الله له، فبعد أن كان من أبناء الرؤساء والكتاب للحكام، وعاشر أبناء المجون والانحراف، فقطعوا الطريق، والدروب، إذا بالله يوقظه من كبوته، ويرزقه توبة ومحبة وخشية، وإقبالاً عليه، فيرتاد مجالس العلم والتزكية، ويجالس كبار الشيوخ والعلماء، ويصدق في حاله وطريقه، فيشتهر صيته، ويقبل عليه الناس متعلمين، يلتمسون التزكية والتوجيه ويحبه العلماء والأقران ويثنون عليه ويذكرون شهادات عظيمة في حقه. كما سنرى في البحث . وقد كان لسيدنا بشر مواقف من كثير من القضايا المثارة في مجتمعه، أدلى فيها برأيه وموقفه .

أ) تصدي سيدنا بشر لبدعة خلق القرآن وتأييده للإمام أحمد بن حنبل

لقد رفض سيدنا بشر بدعة خلق القرآن وحارب قائليها والمؤيدين لها، وأيد كل محارب لها، ومن أكبرهم وأقواهم في ذلك الإمام أحمد بن حنبل .

إن الإمام بشراً أحب وقدر الإمام أحمد وآزره بقوة، وأفصح عن ذلك في مواقف كثيرة، لذا ورد عنه تعليق على ثبات أحمد وتحمله الأذى في سبيل ربه ودينه وأمته .

فقال: "أُدخِل أحمد بن حنبل الكير، فخرج ذهبةً حمراء!" .

وسئل مرة عن الإمام أحمد، فرد بحب وإجلال له قائلاً: "أنا أُسأَل عن أحمد؟!. إن ابن حنبل أُدْخِل الكير، فخرج ذهباً أحمر!!" .

ولما بلغ أحمد ما قاله عنه أخوه الإمام بشر قال: "الحمد لله، الذي رضَّي بشراً بما صنعنا". وفي "حلية الأولياء": "الحمد لله الذي أرضى بشراً بما صنعنا" .

وقال بشر عن أحمد بعد المحنة: "هو إمام من أئمة المسلمين" .

ولما ضُرب أحمد أيام المحنة دخل بشر على أبي نصر التمار، مشيداً بموقف أحمد ومقدراً، :"يا أبا نصر، إن هذا الرجل قام اليوم بأمر عجز عنه الخلق،

وأرجو أن يكون ممن نفعه الله بالعلم" [١].

وتوضيحاً لقدر الإمام أحمد وأهمية موقفه الثابت على الحق، الرافض للابتداع والانحراف، قال بشر لِما طُلب منه أن يعلن علناً أن يصنع ما قام به أحمد ــ: "أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء؟. إن أحمد بن حنبل قام مقام الأنبياء" .

وفي رواية: "تريدون مني مقام الأنبياء؟. ليس ذا عندي، حفظ الله أحمد بن حنبل من بين يديه، ومن خلفه" .

وقال ــ أيضاً ــ: "لا يقوى بدني على هذا، حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله" [٢] .

ويذكر أحد أصحابه أن بِشراً وصله خبر ضرب الإمام أحمد سبعة عشر سوطاً، فمد بشر رجله، وجعل ينظر إلى ساقيه، ويقول: "ما أقبح هذا الساق، أن لا يكون القيد فيه نصرةً لهذا الرجل!"[٣] .

وبين بشــر كثيراً من خِلال أحمد وأخلاقه العالية العجيبة، من خلال تخلق أحمد ــ ﷺ بسمات الفتوة العظيمة التي وضحها الإمام سفيان الثوري، وقوله: "الفتوة: العقل والحياء.

ورأسها: الحفاظ، وزينتها: الحلم والأدب، وشرفها: العلم والورع، وحليتها: المحافظة على الصلوات وبر الوالدين وصلة الرحم وبذل المعروف وحفظ

---

(١) "مناقب الإمام/ أحمد بن حنبل" لابن الجوزي، ص ١٢١ ــ ١٢٣، و"منازل الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد"، ص٢٤٤، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٧ .

(٢)"مناقب الإمام/ أحمد بن حنبل" لابن الجوزي، ص ١٢٣ ــ ١٢٤، و"منازل الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد"، ص٢٤٤، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٧ .

(٣)"مناقب الإمام/ أحمد بن حنبل" لابن الجوزي، ص ١٢٣ ، و"منازل الأئمة الأربعة "، ص٢٤٤، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٧ .

الجار، وترك التكبر. ولزوم الجماعة والوقار، وغض الطرف عن المحارم، وبذل السلام" .

وأضاف: "وأبر الفتيان العقلاء الذين عقلوا عن الله ــ تعالى ــ أمره ونهيه. وصدق الحديث، واجتناب الحِلف والأيمان، وإظهار المودة وإطلاق الوجه، وإكرام الجليس، والإنصات

للحديث، وكتمان السر، وستر العيوب، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، والوفاء بالعهد، والصمت في المجالس من عَيّ، والتواضع من غير حاجة .

وأكمل [١]: "وإجلال الكبير والرفق بالصغير، والرأفة والرحمة للمسلمين،والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، وكمال الفتوة الخشية لله – ﷻ –" .

وختم بقوله: "فينبغي للفتى أن تكون فيه هذه الخصال، فإذا كان كذلك كان فتىً بحقه" .

وقد علق الإمام بشر على هذه الخصال بقوله: "وكذلك كان أحمد بن حنبل فتىً، لأنه قد جمع هذه الخصال كلها" [٢] .

هذه الشهادة من الزاهد الورع الإمام: بشر في حق الإمام أحمد، تؤكد منزلة أحمد العظيمة، وقد أقر بشر بتميز الإمام أحمد عليه في ثلاث خصال، فقال: "فُضل عليَّ أحمد بن حنبل بثلاث: طلب الحلال لنفسه ولغيره، وأنا أطلبه لنفسي فقط، واتساعه في النكاح، وضيقي عنه، وكونه نُصّب إماماً للعامة"[٣] .

– ومما قاله سيدنا بشر، مبيناً قدر الإمام أحمد وصبره على البلاء الشديد بالحبس والضرب، ثم بالتكريم من المتوكل وبسط الدنيا عليه، :"قام أحمد

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٣٧.

(٢) "مناقب الإمام أحمد بن حنبل"، ص ١٢٣، ١٢٤، و"غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب"، ج١، ص ٢٣٥.

(٣) "الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٦٠ .

مقام الأنبياء، وقد تداولته أربعة خلفاء، بعضهم بالضراء، وبعضهم بالسراء، فكان فيها معتصِماً بالله – ﷻ –" .

تداوله المأمون والمعتصم [١]والواثق[٢]، بعضهم بالضرب والحبس، وبعضهم بالإخافة والترهيب .

فما كان في هذه الحال إلا سليم الدين، غير تارك له، من أجل ضرب ولا حبس .

ثم امتحن أيام المتوكل بالتكريم والتعظيم، وبُسطت عليه الدنيا عليه فما ركن إليها، ولا انتقل عن حالته الأولى، رغبة في الدنيا" [٣] .

وصدق أبو عمر [٤]هلال بن العلاء الرقي حين بين عظمة وأثر أربعة من كبار الأئمة في حفظ حديث رسول الله – ﷺ – وتفقههم وثباتهم، فقال: "مَنَّ الله على هذه الأمة بأربعة: بأبي عبيد، فسر غريب حديث رسول الله – ﷺ . وبالشافعي[٥]، تفقه على حديث رسول الله. ويحيى بن معين[١]، نفى الكذب

---

(١) المعتصم: هو الخليفة العباسي/ أبو إسحاق، محمد بن هارون بن محمد المهدي بن المنصور، ولد عام ١٨٠هـ، ومات عام ٢٢٧هـ، ثامن الخلفاء العباسيين. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج١٠، ص ٢٩٠، و"العبر في خبر من غبر"، ج١، ص٤٠٠، و"البداية والنهاية"، ج١٠، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٧ .

(٢) الواثق: أبو جعفر وأبو القاسم، هارون بن المعتصم بالله، محمد بن هارون الرشيد، ولد عام ١٩٦هـ، ومات عام ٢٣٢هـ، امتاز بقوة الجسد وشدة الحرب، قام بفتوحات مهمة. انظر "البداية والنهاية"، ج١٤، ص ٢٨٩، و"الكامل في التاريخ"، ج٦، ص ١٧٦ .

(٣) نعمان بن محمود الألوسي، "جلاء العينين في محاكمة الأحمدين"، ط. مطبعة المدني، عام ١٩٨١م، ص ٢١٥ .

(٤) أبو عمـــــر، العلاء بن هلال بن عمر بن أبي عطية، الرقي، محدث، ولد عام ١٥٠هـ، ومات عام ٢١٥هـ، ــ رحمه الله ــ. انظر "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٤١٧ .

(٥) الإمام الشافعي: هو الحبر المكرم، ناصر السنة، أحد الأئمة المجتهدين الأعلام، ولد بغزة، من بلاد الشام، ونشأ بمكة، ومات بمصر، ولد عام موت أبي حنيفة، صاحب

من حديث رسول الله، وبأحمد بن حنبل، ثبت في المحنة" [٢] .

وأرى صحة قول من أدرك ورأى الفرق الكبير بين حياة سيدنا بشر وما فيها من ورع وعبادة، وحياة الإمام أحمد وتصديه للمنحرفين الزائغين عن الهدي، وثباته أمام الظلم وأهله، فقد قال محمد بن مصعب[٣]: "لسوط ضرب أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث" [٤] .

- إن بشراً - رحمه الله -، كان يرى أن من محبة الله العظيمة للعبد أن يؤذى في سبيله، ولا خير فيمن لا يؤذى، وقال في ذلك: "إذا أحب الله - ﷻ - أن يتحف العبد سلط عليه من يؤذيه، ولا خير فيمن لا يؤذَى" .

وبين لأصحابه أن حقائق الإيمان وحلاوته لا يذوقها العبد إلا بالبلاء والصبر عليه، فقال: "لا يذوق العبد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء من كل مكان"[٥] .

- ووضح أن الابتلاء والامتحان يقع على كل إنسان، بالخير والشر، ليقدم كل إنسان عمله وجهده وسعيه وتعامله مع هذا البلاء والامتحان، ليحاسبَ بالعدل على ما قدم، فقال سيدنا بشر في ذلك: "ما أعلم أحداً إلا مبتلىَ؛ رجل بسط الله رزقه، فلينظر كيف شكره؟. ورجل قبض رزقه، فلينظر كيف

المذهب المعروف، مناقبه كثيرة، ألفت فيها مجلدات ،مات عام ٢٠٤هـ. انظر "سير أعلام النبلاء":، ج١٠، ص ٥ ــ ٩٩، وغير ذلك من مراجع .

(١) يحيى بن معين: هو المحدث، الإمام، يحيى بن معين بن عون العطفاني، روى عن الأئمة: ابن عيينة، وهشيم، وعبد الرزاق، وروى عنه الأئمة: البخاري وأبو داوود وغيرهم، توفى عام ٢٠٣هـ. انظر ترجمته في "تذكرة الحفاظ"، ج٢، ص ٤٢٩ .

(٢) "مناقب الإمام أحمد بن حنبل"، لابن الجوزي، ص ١٣١ .

(٣) محمد بن مصعب، أبو جعفر، الدعَّاء، كان مجاب الدعاء، ، يقص في المسجد، معظماً في عيون العلماء والعباد. توفى ببغداد عام ٢٢٨هـ. انظر "الوافي بالوفيات"، ج٥، ص ٣٣، و"طبقات الحنابلة"، ج١، ص ٣٢٠ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٤ .

(٥) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢٠٤ .

صبره؟" [١] .

- لقد كان الإمام بشر متابعاً بقوة لقضية ثبات العلماء أمام المحنة وضعف بعضهم وانحرافه، لذا لما علم بشر بإجابة أبي نصر التمار وموافقته للمبتدعة، لَما عذب وأوذي، حزن واسترجع مراراً، وقال: ما كان أحسن تلك اللحية، لو خُضبت ــ يعني بالدم ــ، ولم يجب حتى يُقتَل" [٢] .

وقال عن العلماء الذين لم يقولوا الحق في المحنة: "وددتُ أن رؤوسهم خضبت بدمائهم، وأنهم لم يجيبوا" [٣] .

(ب) إنكـــاره ومحاربته بدعة خلق القـــــرآن.

لقد كان سيدنا بشر رافضاً ومحارباً لبدعة القول بخلْق القرآن، ولما ذكر رجل لبشر أن أحمد بن حنبل قيل له: "أليس الله قديماً، وكل شيء دونه مخلوق؟". لم يتركه سيدنا بشر يكمل فريته بأن القرآن مخلوق، وقاطعه وصاح فيه: لا، كل شيء مخلوق إلا القرآن" [٤] .

وعرف عنه تأييده لكل محارب لهذه البدعة الضالة .

- وعندما جاءه موت المبتدع الضال بشر المريسي في السوق، فرح بهلاكه، وأراد السجود لله شكراً، لولا خوفه أن يُشتهر ذلك، فامتنع حذراً من الرياء والسمعة. فقال في ذلك: "جاء موت هذا الذي يقال له المريسي وأنا في السوق، فلولا أنه كان موضع شهرة لكان موضع شكر وسجود" وقال: "الحمد لله الذي أماته" [٥] .

(ج) إشهـــار تعظيم الصحابة، وذكر محاسنهـــم.

لقد كان سيدنا بشر محباً بقوة، معظماً لصحابة النبي - ﷺ - جميعاً، خاصة

---

(١) د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص ١٦ .

(٢) "مناقب الإمام/ أحمد ..."، ص ٤٧٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٢، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٥ .

(٤) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٣، ٥٤٤ .

(٥) "اجتماع الجيوش الإسلامية ..."، مرجع سابق، ج١، ص٤١٧ .

الخلفاء الراشدين، ووردت عنه أقوال تبين ذلك .

منها قوله: "ما أنا بشيء من عملي أوثق مني بحب أصحاب محمد – ﷺ –".

وفي رواية: "أوثق عملي في نفسي حب أصحاب محمد – ﷺ –" .

وبين أن وجود ضغينة في قلب أي مسلم تجاه صحابة رسول الله – ﷺ – تكسبه غضب الله وقمته، مهما أنفق من مال أو عبد ربه، وفي ذلك قال: "لو أن الروم سَبَتْ من المسلمين كذا وكذا ألفاً، ثم فداهم رجل كان في قلبه سوء لأصحاب النبي – ﷺ – لم ينفعه ذلك بشيء" (١) .

وفي رواية قال: "لو أن الروم بأسرهم جاءوا إلى "باب الأنبار" [بالعراق]، فخرج إليهم رجل بسيف حتى ردهم إلى الموضع الذي جاءوا منه، ثم نقص أحداً من أصحاب رسول الله – ﷺ – مقدار ثقب إبرة ما نفعه ذلك" (٢).

ورأى أنه لا توبة لمن طعن أصحاب رسول اللهن فقال: "نظرت في هذا الأمر فوجدت لجميع الناس توبة إلا من تناول أصحاب رسول الله – ﷺ –، فإن الله – ﷻ – حجز عنهم التوبة".

وروى سيدنا بشر حديثاً بين فيه سيدنا علي – ﷺ – أن: "أفضل الناس بعد رسول الله – ﷺ –: أبو بكر وعمر وعثمان، ــ رضي الله ــ تعالى ــ عنهم" .

وروى رواية أخرى، جاء فيها أن سيدنا علياً خطب على منبر الكوفة، فقال ــ مبيناً فضل كبار الصحابة الراشدين ــ: "ألا إن خير الناس بعد رسول الله – ﷺ – أبو بكر ثم عمر، ولو شئت أن أخبركم بالثالث لأخبرتكم"، ثم نزل من على المنبر، وهو يقول: "عثمان، عثمان" (٣) .

وروى سيدنا بشر حديثاً ورد فيه قول النبي – ﷺ – مادحاً سيدنا معاوية بن

---

(١) "مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص١٩٤، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٨، و"تاريخ دمشق"، ج١٠، ص١٩٣ .

(٢) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ١٩٣، ١٩٤ .

(٣) انظر: "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٩ .

أبي سفيان، وداعياً له: "اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهد به" [١] .

وذكر سيدنا بشر أن الإمام المعافي بن عمران سئل: معاوية أفضل أم عمر بن عبد العزيز؟. فأجاب: كان معاوية أفضل من ستمائة مثل عمر بن عبد العزيز، ولذا قال أحمد: "أصحاب رسول الله – ﷺ – لا يدانيهم أحد، أصحاب رسول الله – ﷺ – لا يقاربهم أحد، ولو كان عمر بن عبد العزيز مشتهراً بفضله وعدله، فمعاوية – ﷺ – أكثر شهرة بفضله وعدله وقربه وعلمه"[٢] .

ورجا سيدنا بشر من ربه أن يلقاه ويقدم على رسول الله، وهو محب لأصحابه–ﷺ–، فقال: "أرجو أن أقدم على محمد – ﷺ – ولا أخزى في أصحابه غداً" [٣] .

(د) تصحيح واقع التصـــوف الســـــني.

ركز سيدنا بشر على بيان حقيقة التصوف، وفصَّل في ذلك، فقال: "التصوف اسم لثلاث معان: أن لا يطفئ نور عرفانه نور ورعه، وأن لا يتكلم بباطن ينقضه ظاهر من كتاب أو سنة، وأن لا تحمله الكرامة على هتك الأستار"[٤] .

– ودخل قوم من الصوفية على بشر، فنصحهم بتقوى الله وإكرام سمعة التصوف، فقال لهم: "اتقوا الله يا معشر الصوفية، فإنكم لم تعرفوا إلا به، ولا تكرموا إلا من أجله[٥] .

لينمح جاهك عندهم، وأخرِجْ ما يعطونك للفقراء، وكن بعقد التوكل، تأخذ

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٨، والحديث رواه الترمذي، كتاب: المناقب، مناقب لمعاوية ــ ــ رقم (٣٨٤٢، ومسند الإمام أحمد، ج ٤ ص ٢٦٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٩٦٩ .

(٢) د/ مازن بن عيسي، "الإصابة في الذب عن الصحابة"، د. ن. ت، ص ٢٢٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ٤١٢ .

(٤) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص٥٦٤ .

(٥) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢١٢ .

قوتك من الغيب" .

هنا، اشتد هذا النصح على أصحاب بشر، وانتظروا رد سيدنا بشر، فقال للرجل: "اسمع أيها الرجل الجواب: الفقراء ثلاثة: ١ ــ فقير لا يسأل، وإن أُعطِي لا يأخذ، فذلك مع الروحانيين في عليين، إذا سأل الله أعطاه، وإن أقسم على الله أبرَّ قسَمه .

٢ ــ وفقير لا يسأَل. وإن أُعطي قبِل. فذاك من أوسط القوم؛ عقده التوكل، والسكون إلى الله ــ تعالى ــ، وهو ممن توضع له الموائد في حظيرة القدس .

٣ ــ وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت، فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله، وقلبه إلى الله بالسؤال. فهذا من الصادقين، فكفارة مسألته صدقه في السؤال. [أي سؤال الله]" .

بعد هذا البيان المدهش لسيدنا بشر، سر الرجل برده، وتبين له الأمر، وقال: "رضيتُ، رضي الله عنك". وارتاح الحاضرون لإجابة الإمام بشر [١] .

– وقد نبه سيدنا بشر إلى ضرورة التباعد عن المعصية لله، وترك الذنوب، لتتحقق استجابة الدعاء، بل أفصح عما هو أقوى من ذلك فقال: "الدعاء ترك الذنوب" [٢] .

وهذا معناه الاستقامة، التي بها يكون العبد في عناية ربه وحفظه، بحيث إذا دعاه أجابه، وإذا استعاذ به حماه! .

إن "ترك الذنوب"، ليس أمراً سلبياً، كما بين العلامة الدكتور عبد الحليم محمود، ــ رحمه الله ــ، لأن ترك الفرائض ذنب، فترك الذنوب متضمن فعل وأداء الفرائض .

وترك الواجبات ذنب، فترك الذنوب محتوٍ على القيام بالواجبات .

---

(١) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص ٥١، و"الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٦٢، و"قوت القلوب"، ج٢، ص٣٢٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص ١٢٢ .

إن هذه العبارة الموجزة "الدعاء ترك الذنوب" عميقة المعاني، كبيرة الدلالة، تشمل القيام بحقوق الله وحقوق الناس، وعدم تضييعها، وأداء فرائضه، وهذا أفضل ما يتقرب به العباد إلى الله، وأحبه إليه، كما جاء في الحديث القدسي: "وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه" [١] .

– بل يرى سيدنا بشر أن "الدعاء كفارة للذنوب" [٢] فهو عبادة يحبها الله، وكريمة عليه، بل "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" كما جاء في الحديث .

والدعاء دليل معرفة العبد لربه وحاجته إليه وإيمانه بوجود الله وقربه وسمعه وبصره وقدرته ورحمته، ... إلى غير ذلك من صفات الله وأسمائه .

فهو عبادة تغفر بها الذنوب، لذا جاء في الحديث القدسي: "يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي" [٣].

– وطالب بالصدق في كل شأن، وعدم التفكير في الكذب، أو تبريره أبداً، أو استساغته تحت أي سبب، ولذا قال بشأن الرسائل المكتوبة للزملاء والأحباب وغيرهم: "إذا كتبت لأخيك كتاباً، فلا تزخرفه بحسن الألفاظ، فإني كتبت كتاباً، فعرض لي كلام، إن كتبتُه حسُن الكلام وكان كذباً، وإن تركتُه سَمِج، وكان صدقاً، فذكرت السمج الصدق، فناداني منادي: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم: ٢٧]" [٤] .

إنه درس في الصدق، ومراقبة الله، عاشه ونقله لتلاميذه ومستمعيه .

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: التواضع، رقم: ٦٥٠٢ .

(٢)"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٤، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص ١٢٣ .

(٣) الحديث رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح، رقمه: ٣٥٤٠، كتاب "الدعوات"، و "جامع العلوم والحكم ..."، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٤) "الكواكب الدرية ....."، ج١، ص ٥٦٣ .

وقد حرص ــ رحمه الله ــ على بيان حقيقة المحبة لله وأنها ليست مجرد عقيدة ووجدان فقط، إنما معها طاعة لله، وتسليم له وخضوع فقال في ذلك: "حقيقة المحبة ترك مخالفة المحبوب بكل حال، والتسليم له في الحال والمآل" وقال: "المحبة ذل في عزب المحبوب ..." .

وليس من أصول المحبة: "أن تحب ما يبغض حبيبك" [١] .

– وبين سيدنا بشر ضرورة التسليم لأمر الله وطاعته، فذلك دليل على الحب الصادق لله، وكذا حب رسول الله – ﷺ –، فطاعته واتباع سنته البرهان القوي على محبته .

وفي ذلك قال: "علامة حب الله التسليم لأمره وطاعته، وعلامـــة حب رسول الله – ﷺ – تسليم آثاره، والعمل على سنته، ولا يلتفتُ إلى غيره" [٢] .

وقد ذكر سيدنا بشر رؤياه للنبي – ﷺ – في المنام، وإخبار النبي له برفع الله قدره بين أقرانه، لأسباب قام بها سيدنا بشر، كان منها اتباعه سنة النبي وحبه لأصحابه .

فقال: "رأيتُ النبي – ﷺ – في المنام، فقال لي: يا بشر، تدري لِمَ رفعك اللهُ من بين أقرانك؟. قلت: لا يا رسول الله. قال: لاتباعك لسنتي، وحبك "وفي رواية وخدمتك"، للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلغك منازل الأبرار" [٣] .

ودعا إلى تعظيم الله والإقبال عليه، خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه،

---

(١) "الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٦٢، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر .."، ص ١٠٦ .

(٢) العلامة الهروي أبو إسماعيل عبد الله بن محمد، "ذم الكلام وأهله"، تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، ط (١)، ١٩٨٨م، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ج٣، ص٣٧، ٣٨ .

(٣) الإمام/ الشاطبي، "الاعتصام"، تحقيق ودراسة" د/ محمد عبد الرحمين شقير وآخرون، ط (١)، دار ابن الجوزي للنشر، السعودية، ٢٠٠٨م، ج١، ص١٥٣ .

وشوقاً إلى كرمه والنظر إلى وجهه الكريم .

وخاطب الإنسان: "هب أنك لا تخاف!!، ويحك، ألاَ تشتاق؟" .

وذكر أن الصابر في الدنيا العفيف عن الحرام، المتألم من جوعه في ذلك، له أجر عظيم، جزيل، لا يقل عن المجاهد الذي قُطع جسده وسال دمه في سبيل الله، فقال: "المتقلب في جوعه، كالمتشحط في دمه في سبيل الله، وثوابه الجنة" (١) .

ومن أقوى نصائحه وتوجيهاته ما نصح به سيدنا سري السقطي، بشأن اكتمال عبوديته لربه بتحرره مما سواه، بألا يملكه شيء من المخلوقات وغيرها، فيعيش ويذوق لذة الحرية بكمال عبوديته لله، فقال له: "إن الله ــ تعالى ــ خلقك حراً، فكن كما خلقك، لا تراءِ أهلك في الحضر ولا رفقتك في السفر، اعمل لله، ودع الناس عنك" (٢) .

ووضح طريق ذوق طعم الحرية والاستراحة من العبودية لغير الله، فقال: "من أراد أن يــذوق طعم الحرية ويستريــح من العبودية، فليطهـــر السريرة بينه وبين الله – تعالى –" (٣) .

---

(١) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص ٤٨، و"الكواكب الدرية ..."، ج١، ص٥٥٧ .

(٢) "اللمع في التصوف"، للطوسي، أبي نصر عبد الله بن علي السراج، ص ٣٧٢، صححه: رنولد آلن نيكلسون، ط. لندن، مطبعة بريل، ١٩١٤م، ص ٣٧٢ .

(٣) "الرسالة في التصوف"، للإمام/ القشيري، ط. القاهرة، ص .

المطلب الخامس :

عنايته بالجانب التربوي .

برز هذا الدور من خلال حاله وعمله ومواعظه وتوجيهاته، فكانت الأقوال والحكم المعالجة للواقع بحكمة ورشاد .

- إن بشراً، بترديده لأقوال السادة الكبار من العلماء وتبنيه لمواقفهم، يوضح معلماً مهماً من معالم حياته، وهي قدرته على غربلة سير العلماء ومواقفهم، واختيار أحكم أقوالهم وأنفعها فيما يراه، وأنسبها للمواقف، ثم يخبر طلابه ومستمعيه بها .

إن بشراً لم يقف متفرجاً صامتاً أمام الأخطار والأمراض الاجتماعية والخلقية في المجتمع، بل نصح وواجه ووعظ، وربى وغير! .

وكان على مستوى الأمانة والرسالة التي حملها .

إن بشراً في عظاته ووصاياه لتلاميذه، وأصحابه كان يتكلم عن منهجه في الحياة، وما يتمناه لنفسه والمجتمع، من مبادئ كريمة .

- ومن أهم هذه الحكم والرؤى ما قاله في شأن كيفية إقامة علاقة صحيحة مع الله، تثمر قول الحكمة والعمل بها، فقال في ذلك: "من أراد أن يلقَّن الحكمة فلا يعص الله" [١] .

وقال: "إن لم تطع فلا تعص" [٢] .

- وبشأن ضرورة استقامة الأخلاق وصحة العبادة، وتطهير النفوس من أمراضها، أكثر سيدنا بشر من التذكير بذلك .

فحذر القراء والعلماء من آفتين مهلكتين هما العجب والغيبة فيما بينهم، فقال: "هلاك القراء في هاتين الخصلتين: الغيبة والعجب" [٣] .

لذا، طالب كل مسلم والداعي خاصة، بمجاهدة النفس، في مطاردة العجب

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٦، و"الكواكب الدرية .."، ج١، ص٥٦٤ .

(٢) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص٥٠ .

(٣) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢١٠ بتصرف .

فقال: "إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم" [١] .

وتعجب الإمام ممن يحرص على تعافي القذى في الماء، في حين يغرق في الذنوب ولا يبالي، فقال له:

تعاف القذى في الماء لا تستطيعه ... وتكرع في حوض الذنوب فتشربُ
وتؤثر في كل الطعام ألـــــــذَّه ... ولا تذكر يا مسكين من أين يُكسَبُ
وترقد يا مسكين فوق نمـــارق ... وفي حشوها نار عليك تُلهـــــــبُ
فحتى متى تستفيق جهالـــةً ... وأنت ابن سبعين بدينك تلعـــــــبُ" [٢]

وبين أنه: "لا تجد حلاوة العبادة، حتى تجعل بينك وبين الشهوات سداً" [٣].

وفي رواية: "حائطاً من حديد" [٤] .

- وصدق حين قال: "من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه، فَرَقَ [خاف] الشيطان من ظله، ومن غلَب علمُه هواه فهو الصابر الغالب، واعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه" [٥] .

وبين أن العبد لا تكتمل تقواه إلا إذا سيطر على غضبه فكان تقياً في غضبه، وفي ذلك قال: "لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقي الغضب" [٦] .

- وطالب كل عابد بأن يؤدي عبادته؛ صوماً أو صلاةً، أو غيرها ــ بصورة صحيحة، فيحفظها مما ينقصها ويُذهب أجرها وأثرها، مع رعاية توفير أسباب قبول الله لها ورضاه

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٧ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج١٠، ص٢١٧ .

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج١٩، ص ٤٦٦ .

(٤) "طبقات الصوفية"، للسلمي، أبو عبد الرحمن السلمي، محمد بن الحسين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط.(١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٧ .

(٥) ابن الجوزي، "ذم الهوى"، ط١ ، دار الكتاب العربي ، ١٩٩٨م ، تحقيق وتعليق وضبط ، خالد عبد اللطيف العلمي، ص ٥٥ .

(٦) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٥، و"العارف بالله بشر"، ص٥٩ .

عنها، لذا لما قيل له: "العبادة لا تصلح إلا بالصيام!، قال: قد يصوم البر، والفاجر، فإن كنتَ صائماً فاجتنب كثرة الكلام والغِيبة، وأطب مطعمك يسلم لك صومك، وإلا فاستخِر الله وكل!!" [١] .

وأنشد بيتين، مبيناً أنه لابد من تحقق الإيمان اعتقاداً وعملاً، ظاهراً وباطناً، لكي يعد صاحبه صادقاً، يستحق شرف الإيمان، فقال:

وليس من يزوق لي دينه يغرني يا صاحِ تزويقُهْ

من حقق الإيمانَ في قلبه يوشك أن يظهر تحقيقهْ [٢] .

وقد روي عن سيدنا بشر أنه قال: "إن العبد ليقرأ: "إيك نعبد، وإياك نستعين" فيقول الله تعالى: كذبت، ما إياي تعبد، ولا بي تستعين، لو كنت تعبد إياي، لم تؤثر هواك على رضاي، ولو كنت بي تستعين لم تسكن إلى حولك، ولا قوتك، ولا إلى مالك، ونفسك" [٣] .

- وطالب كل مطيع بمعرفة المطاع سبحانه وحبه مع عمله الصالح حتى يذوق حلاوة الطاعة، فقال: "من حرم المعرفة لم يجد للطاعة حلاوة" .

- وبين ضرورة بيان الثواب المترتب على فعل الطاعات، ليقبل عليها الإنسان بحب وخفة ويسر، فقال: "من لا يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه في جميع الأحوال" [٤] .

- وبين أهمية التفكر في عظمة الله، لإصلاح العبد وتزكيته، فهذا التفكر

---

(١) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢١١، و د: عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٦٣ ، و"مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص٢٠٢ .

(٢) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص ٢١٧، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٥، و"طبقات الأولياء"، ص١١١.

(٣) "قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد"، لأبي طالب المكي، ج٢، ص٢٨ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٩، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص١٠٢ .

يوقفه على آيات القدرة والجلال والكمال لله، ويملأ قلبه إجلالاً وتقديساً وخشية له سبحانه، مما يجعله محباً للطاعة، نافراً، مبغِضاً للمعصية .

لذا قال سيدنا بشر: "لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله" [١] .

- وأدرك سيدنا بشر أمراً مهماً في حياة كل مسلم، وهو توالي الهموم والغموم عليه إذا قل عمله الصالح وضعف اهتمامه بأمر ربه وآخرته وإصلاح مجتمعه، فقال في ذلك: "إذا قل عمل العبد ابتلي بالهم" [٢] .

واستنكر أمراً موجوداً عند كثير من المتدينين وهو نظرهم إلى عمل الآخرين باحتقار واستقلال، وإعجابهم بأعمالهم، ورؤيتها كثيرة عظيمة، فقال: "العجب أن تستكثر عملك، وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك" [٣] .

- وقد نصح جليساً له بالحذر من الاغترار بستر الله وحلمه والجرأة على معصيته لذلك، والفرحة بثناء الناس على الإنسان، ونسيان قبائحه ونقصه، فقال: إن قوماً غرهم ستر الله، وفتنهم حسن ثناء الناس عليهم، فلا يغلبن جهل غيرك بك على علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك من الاغترار بالستر، والاتكال على حسن الذكر!" [٤] .

- وأمر بصدق وإخلاص العمل لله، فقال: "اعمل في ترك التصنع، ولا تعمل في التصنع" [٥] وعلَّم أصحابه حسن اختيار أصحابهم وجلسائهم ، فأخبرهم بأنه ذات يوم سأل أستاذه فقال له : يا بشر. قلت : لبيك. قال له : كل صديق لك لا تنتفع بصداقته ، فانف صداقته عنك". فسأله بشر : حبيبي بما أنتفع به ؟.

---

(١) المرجع السابق ، ج٨،ص٣٣٧، و"الكواكب الدرية"، ج١، ص٥٥٩ .

(٢) انظر "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٤ .

(٣) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٨ .

(٤) المرجع السابق، ج١٠، ص ٢١٢ .

(٥) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص٤٧ .

قال له أستاذه : "يعلمك خيراً ، أو يدلك إلى خير ، أو يصطنع إليك خيراً" [١].

– وحذر من خطورة مصاحبة الأشرار، ومن تقليدهم لهم في الشر وسوء الظن بالأخيار، فقال: "صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار" [٢] .

وبين من يصاحَب، فقال: "انظر أشد الناس توقياً، وأعفهم وأطيبهم مكسباً، فجالسْه، ولا تجالس من لا يعينك على آخرتك" [٣] .

لذا ورد عنه في هذا المعنى قوله: "بي داء، ما لم أعالج نفسي، لا أتفرغ لغيري، فإذا عالجتُ نفسي تفرغتُ لغيري، ما أبصرني بموضع الداء، وموضع الدواء، إن أعانني منه [الله تعالى]، بمعونة" .

ثم قـــال لمن حوله: "أنتم الداء، أرى وجوه قوم لا يخافون، متهاونين بأمور الآخرة" [٤].

وأنشد [٥] أبياتاً في هذا الصنف من الرجال الذين لا يتناصحون ولا يصنعون خيراً في الأمة، فقال عن رؤية لهم وخبرة بهم:

ذهب الرجال المرتجى لفعالهم والمنكرون لكل أمر منكـــــرِ
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معورِ

– وربى تلامذته على اللجوء لله في حاجات الدنيا والآخرة، وعدم طلب شيء من أحد، فقال لأحدهم: " أما تستحي ان تطلب الدنيا ممن يطلب الدنيا، اطلبها ممن بيديه الدنيا" .

وصدق حين قال: "الأخذ من الناس مذلة" [٦]. وأحسن حين قال: "عز المؤمن

---

(١) "تاريخ بغداد" ، ج١٤ ، ص٥٤٤.

(٢) "الرسالة"، للقشيري، ص ١٣٤، و"الكواكب الدرية"، ج١، ص٥٦٤ .

(٣) "مختصر تاريخ دمشق"،لابن منظور، ج٥، ص ٢٠٠ .

(٤) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢١١، و"العارف بالله بشر"، ص٥٨، و"طبقات الصوفي"، ص٥٠، ٥١ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٤ .

(٦) "تاريخ دمشق، ج١٠، ص٢٠٨، و"تاريخ بغداد"، ج١١، ص٣٠١ .

استغناؤه عن الناس" [١] .

ونصح ابن أخته بالعمل والجهد لكسب عيشه، وقال له: "يا بني الزم العمل، فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين" [٢] .

ونصح سيدنا بشر أحمد بن محمد بن غزوان الهراني[٣] بلزوم السوق والتجارة، فقد قال له بشر: "بلغني أنك لا تلزم السوق، فالزم" .

ولما قام أحمد لينصرف أعاد عليه النصح بقوله: "الزم السوق!". وفهم أحمد منه أنه يلزم السوق وإن لم يربح .

وقد حث سيدنا بشر أحمد بن محمد بن غزوان، بضرورة الاقتصاد في الإنفاق، وادخار المال، وحسن التعامل معه، فقال له: "عليكم بالرفق والاقتصاد في النفقة، فلأن تبيتوا جياعاً، ولكم مال، أحب إليَّ من أن تبيتوا شباعاً، وليس لكم مال" [٤] .

- وبين حسن عاقبة من ترك الشهوات الآثمة، إيماناً بآخرة، يستمتع فيها بكل نعيم طيب، فقال: "طوبي لمن ترك شهوة حاضرة لوعد غائب لم يره"[٥] .

وصدق حين قال ــ مبيناً ثمرات تذكر الآخرة ــ: "إذا ذكرت الموت ذهبت عنك صفوة الدنيا وشهواتها" [٦] .

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٣٨ .

(٢) "المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق، بدراسة: د/ عبد الحكيم الأنيس .

(٣) محمد بن أحمد بن غزوان: هو محمد بن أحمد بن محمد بن الحارث بن كثير بن غزوان، بن عبد ربه، أبو الطيب، يعرف بابن الكاتب. انظر "تاريخ بغداد"، ج٢، ص ١٩٣ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٠، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٩٤ .

(٥) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢٠٦ .

(٦) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٧ .

- وطالب بالاستعداد للموت والحساب، بالعمل الصالح المخلص، وقال: "ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من قد جمع زاده، فوضعه على رحلته، لم يَدع شيئاً مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه" .

وقال لمن طلب منه وصية: "أكثر ذكر الموت، والهُ عن الدنيا" [١] .

إن الدنيا التي أبغضها ونفَّر منها سيدنا بشر هي الصارفة للعبد عن الطاعة، والذكر، والعمل للآخرة؛ هي المجموعة من الحرام، والنفاق والغش والزور، وهي التي تنفق في الانحراف والإفساد في الأرض .

أما الثروات الحلال، التي لا تشغل عن الصالحات، وعن السعي المرضي لله، المعمر للنفس والمجتمع، فالإسلام يأمر بتحصيلها والتمكن منها .

بشرط عدم استعبادها للإنسان، وقدرته على التحرر من قيودها وخطرها، وأن يحيا مع الدنيا وشهواتها وآلاء ربه بأنوار قوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣] [٢] .

- وظل الإمام ناصحاً ومعلماً حتى في مرض موته، فقد جاءه رجل طلب منه عظة، فوعظه بعدم إطالة الأمل في الدنيا، والاغترار بها، فقال له: "إن في هذه الدار نملة، تجمع الحَب في الصيف، لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها فجاء عصفور فأخذها والحَبة، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أمَّلت نالت" .

فلما طلب مزيداً من الوعظ، قال له بشر: "ما تقول فيمن القبر مسكنه، والصراط جوازه، والقيامة مسكنه، والله سائله، فلا يعلم، إلى جنة يصير فيهنئ، أو إلى نار فيُعزى، فواطول حزناه، وواعظم مصيبتاه .

زاد البكاء، فلا عزاء، واشتد الخوف فلا أمن" [٣] .

---

(١) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢٠٨ .

(٢) انظر: د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص٩٤، ١٠٠ .

(٣) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢٠٦، ٢٠٧، و"طبقات الأولياء"، ص ٢٧٦

– وحذر من تحول الأخوة والصحبة في الله إلى مجرد لقاءات متعة ولذة فقط، دون استغلالها في نصرة الدين وإصلاح الأمة، فقال في ذلك: "كلما اشتهى رجل لقاء رجل ذهب إليه!، هذه فتنة ولذة، يتلذذون بلقاء بعضهم بعصاً!" .

– وطالب بإقبال المرء على نفسه ومصالحه وعدم صرف وقته في لقاءات لا تفيد!. فقال: "ينبغي للإنسان أن يقبل على نفسه وعلى القرآن" .

ومما قاله:

يا من يُسر برؤية الإخوان مهلاً أمنتَ مكائد الشيطـــان

خلتِ القلوب من المعـــاد وذكره وتشاغلوا بالحرص والخسرانِ

صارت مجالسهم ما ترى وحديثهم في هتك مستور، وخلْق قرآنِ [١]

وقال لأحد تلاميذه: "أقِلِ من معرفة الناس، ولا تحب أن تُحمد، ولا تحب الثناء"[٢] .

وقال لآخر: "لا تعمل لتذكَر، اكتم الحسنة، كما تكتم السيئة" [٣] .

وفي رواية: "اكتم حسناتك، كما تكتم سيئاتك" [٤] .

– وصدق حين ذكر قاعدة في التعامل مع الله والناس، هي قوله: "من عاملَ الله بالصدق استوحش من الناس" [٥] .

وذكر سيدنا بشر أن هناك من الأحياء البعيدين عن الله، من تقسو وتألم القلوب برؤيته وذكره، في حين هناك موتى تحيا وتفرح القلوب بذكره، فقال: "حسبك أن أقواماً موتى تحيى القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تقسو

---

(١) المرجع السابق ، ج١٠، ص ٢١٣، و"العارف باله بشر الحافي"، ص ٦٨ .

(٢) المرجع السابق، لابن عساكر، ج١٠، ٢٠٦، ٢٠٧ .

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج١٩، ص ٤٦٩ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٦ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٤٧، و"العارف بالله بشر ..."، ص٥٩ .

القلوب برؤيتهم" [١] .

وطالب بمداراة الناس وتحمل ضعف أخلاقهم دفعا لأذاهم، ورغبة في إصلاحهم، فأنشد في ذلك قائلاً:

إني أحيي عدوي عند رؤيته ******لأدفــع الشـــــر عني بالتحياتِ
وأحسن البشر بالإنسان أبغضه ******فكأنما ملـــئ قلبي بالمحباتِ
الناس داء ودواء الناس قربهم ******وفي الجفاء لهــم قطع الأخُوَّاتِ
فجامل الناس وأحسن ما استطعت ******وكن أصم أبكـــى أعمى ذا تقياتِ

---

(١) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص٢١٤ .

المبحث الرابع : لاهتمام بالجانب العلمي ، تعاونه مع العلماء .

المطلب الأول : عظيمه للعلم ودور العلماء ، تناصحه ومراسلاته معهم .

كان سيدنا بشر راصداً لواقع العلماء وطلبة العلم، فأحب الكبار العدول، حسان الأخلاق، الصادقين، آكلي الحلال الطيب، الزاهدين، وقال عنهم: "أدركنا العلماء، وفيهم ثلاث خصال: صدق الحديث، والزهد، وأكل الحلال" .

– واستنكر وتألم من غياب وضعف هذه الأوصاف الجليلة في كثير ممن رآهم من أهل العلم، فقال: "وأنا اليوم، لا أعرف في هؤلاء أحداً فيه واحدة من هذه الخصال!!. فكيف أعبأ بهم، أو أبش في وجوههم؟". وفي رواية: "فلذلك لا يُعبأ بهم!. وكيف يدَّعي هؤلاء العلم، وهم يتغايرون على الدنيا ويتحاسدون عليها، ويحرجون أقرانهم عند الأمراء، ويغتابونهم، كل ذلك خوفاً أن يميلوا إلى غيرهم بسحتهم وحطامهم" .

ثم نادى هؤلاء المسيئين: "ويحكم يا علماء السوء، أنتم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوكم العلم، فحملتموه، وزغتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم، أفلا تخافون أن تكونوا أول من تسعر به النار؟!" [١] .

– وطالب العلماء بالعمل بالعلم الذي يعلمونه، وعدم إرادتهم الدنيا بعلمهم،، فقال: "رأيت مشايخ طلبوا العلم للدنيا، فافتضحوا، وآخرين طلبوه، فوضعوه مواضعه وعملوا به وقاموا به، فأولئك سلموا، فنفعهم الله تعالى". وقال: "رأيت أقواماً سمعوا من العلم اليسير فعملوا به، وآخرين سمعوا الكثير، فلم ينفعهم الله به" [٢] .

إن سيدنا بشر كان كثير الحديث، إلا أنه كان يكره الرواية، ويخاف من شهوة النفس في ذلك، حتى أنه دفن كتبه!، وكل ما سمع منه فهو عن طريق

---

(١) "الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٦٤، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٤٧ .

(٢)"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٨، ٣٤٩، و د/ عبد الحليم محمود، المرجع السابق، ص ٤٨ .

المذاكرة، وليس من كتاب!! .

- وقد سُمع بشر - مرة - يقول: "حدثنا حماد بن زيد". ثم توقف وقال: "أستغفر الله". وعلل ذلك بخشيته الخيلاء والكبر باشتهاره بذلك، فقال: "إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء!!" [١] .

وعندما قال عبيد الوراق لسيدنا بشر: "حدِّثنا!. قال له: "يا عبيد، احذر "حَدَّثَنَا"، فإن "لحَدَّثَنَا" حلاوة!!" .

- وحذر من بعض طلاب علم الحديث وحفظه الذين يريدون الدنيا بعلمهم، فالحديث. عندهم ــ: "طرف من طلب الدنيا ولذة" .

وقال عن هؤلاء: "ما أدري كيف يسلم صاحبه؟، وكيف يسلم من يحفظه؟، لأي شيءٍ يحفظه؟!" [٢] .

وعندما أراد الإمام أحمد التأكد من صحة وثبوت حديث معين، وعلِم حفظ بشر له، أرسل له من يتأكد منه، ولما علم أن الإمام أحمد أراد ذلك رد بشر بكلام مؤمن يخشى ربه ويجاهد نفسه، بطريقة مدهشة، فقال ــ داعياً ربه ــ: "ألبِسني العافية، ألبِسني العافية، إن هذا لَبلاء وفتنة!!، يُذكَر حديث، فيقال: لا يصح إلا عند رجل!" [٣] .

- لقد اعتنى الإمام بشر بالعلم والتعليم، ونبه إلى ضرورة طلبه من مريديه، بل كان يرى أنه أفضل ما يُتقرب به إلى الله، فقال: "لا أعلم شيئاً أفضل منه إذا أريد به الله" [٤]. وفي رواية: "لا أعلم أفضل من طلب الحديث والعلم لمن اتقى الله، وحسنت نيته فيه" [٥] .

- وكان يعظم مسؤولية العلماء وخطورة دورهم في بيان الحق والتصدي

---

(١) "تاريخ الإسلام" للذهبي، ج٥، ص ٥٤١، ٥٤٢، و"تاريخ بغداد: ج٧، ص ٥٤٥ .

(٢) "تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ٥٤٧ .

(٤) "تاريخ دمشق"، ج١٠، ص ١٨٧، و"شعب الإيمان"، ج٣، ص ٣٠٧ .

(٥) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص٥٤٣ .

للباطل، ويشعر بفداحة موقفهم أمام الله، لذا قال في ذلك: "لو كنت لا أعلم لكان أروح لقلبي" [١]. بل قال: "أنا أستغفر الله من كل خطوة خطوتها فيه"[٢] .

– وطالب طلاب العلم وأصحاب الحديث بالعمل به ولو بقليله، فقال في ذلك: "يا أصحاب الحديث، أدوا زكاة هذا الحديث؟. قالوا: وما زكاته؟. قال: تعملون من كل مائة حديث بخمسة أحاديث" [٣]. وعلل ذلك بقوله: "يجب عليكم فيه زكاة، كما يجب على من ملك مائتي درهم خمسة دراهم" [٤] .

– وورد عنه قول دعا فيه إلى وجوب العمل بالعلم، وإلا فليترك طلبه!، فقال: "إذا لم يعمل به، فتركه أفضل، والعلم هو العمل" .

وبين أن العلم إنما فُضِّل بالعمل به، وليُتقي الله به .

فقال: "إنما فُضُل العلمُ على غيره ليُتقَي الله به!" [٥] .

وبين لطالب العلم ضرورة طاعته لربه، وعدم عصيانه ليعلمه الله ويفهمه، فقال: "إذا أطعت الله علَّمك، وإذا عصيتَه لم يعلمك، والعلم أداة الأنبياء" [٦] .

وحذرهم من لقاء الله غداً، "وإلا فانظروا إيش يكون هذا عليكم غداً" [٧] .

ونبه أهل العلم إلى عدم إهانة العلم، وضرورة إجلاله ومعرفة عظمته

---

(١) "البصائر والذخائر"، لأبي حيان التوحيدي ،ج١، تحقيق محمد السيد عثمان ، ط درا الكتب العلمية ، بيروت ، ص٦٩٠.

(٢) "تاريخ الإسلام، للذهبي، ج٥، ص ٣٨١، ج٥، ص ٢١٦ .

(٣) "شعب الإيمان"، ج٣، ص ٢٨٦ .

(٤)"تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٤٣ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٧، وص٣٤٠، بتصرف يسير. و د/ عبد الحلم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٤٩، ٥٠ .

(٦) المرجع السابق، ج٨، ص ٣٣٧، وص٣٤٠، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر ..."، ص ٤٩، ٥٠ .

(٧)"تاريخ بغداد"، ج٧، ص٧٣ .

وأهميته، والحفاظ على كرامته، بعدم تزويره وتدليسه، وإخفائه، وتضييعه، أو تسخيره لخدمة الطغيان والظلم، بتحريفه وإخضاعه للأهواء والرغبات الفاسدة، لذا قال: "لا تطلب علماً تهينه للناس، هذا هو الداء الأكبر" .

وطالب العالِم باستعمال الصمت في موضعه "فالصمت من الصبر، ولا يكون المتكلم أورع من الصامت" .

وعلى العالم أن "يتكلم في موضعه، ويسكت في موضعه" [١] .

- وقد دعا العلماء إلى الوقوف في وجه الظالمين، وأمرهم ونهيهم، وإعلان كلمة الحق، فذلك من أفضل وأشد وأحب الأعمال لله وخدمة للدين والمجتمع، وفي ذلك قال: "مِن أسد الأعمال كلمة الحق عند من يُخاف ويُرجى" [٢] .

- إن بشراً - ﷺ - لم يدخل على الحكام رغم تقديرهم له، ولم يقبل مناصبهم، ولم ينل عطاياهم، حفظاً لدينه، ولئلا يضطر إلى مهادنة باطل، أو نصرة ظالم .

ورفض كل الإغراءات التي عرضوها عليه، وقد بلغ من رفعة قدره عندهم أن الخليفة المأمون [٣]طلب من الإمام أحمد الشفاعة ليأذن له بشر بزيارته ، فأبى بشر! [٤] .

ورغم ذلك كان المأمون مقدراً له محباً، وأفصح عن ذلك حين قال ليحيى بن أكثم: "لم يبق في هذه الكورة أحد يُستحى منه غير هذا الشيخ، بشر بن

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤١ .

(٢) "الكواكب الدرية"، ج١، ص٢١٠ .

(٣) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد، سابع خلفاء بني العباس، ولد عام ١٧٠هـ، وتوفى عام ٢١٨هـ، شهد عهده ازدهاراً في الناحية العلمية والفكرية. من أفضل رجال بني العباس علماً وحزماً، وعزماً، بارع في الفقه واللغة والتاريخ،-رحمه الله- ـ. انظر "البداية والنهاية"، ج١٠، ص ٢١٤ ـ ٢٣٠ .

(٤) انظر: "الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٥٨، و"بشر بن الحارث الحافي، المحدث الزاهد"، ص ١٩٥ .

الحارث" [١] .

إن بشراً كانت تأتيه تحيات من خلفاء ووزراء وكبار رجال الحكم، لكنه ما كان يفرح بها، بل يستغل ذلك في النصح والتوجيه لهم .

من ذلك ما قاله ابن مشكان[٢]، عن واقعة معه، قال: قال لي جعفر بن خالد[٣]: "أقرئ بشر بن الحارث مني السلام". قال بشر رداً على ذلك: قل له [لجعفر]،: إنك ثقيل، فتخفف " [٤] [يعني من الذنوب] .

- لقد أبغض التكبر والمتكبرين، وكان يرى ضرورة إشعارهم بالبغض والضعة، فذكر أن: "التكبر مع المتكبرين التواضع" [٥] .

إنه يريد من المجتمع التمسك بعزته وعدم الضعف أمام المتكبرين المتعالين الظالمين، بل يجب إظهار القوة والكرامة وعزة النفس أمامهم، حتى لا يتجبروا أكثر، ويدوسوا المجتمع ويذيقوه الويلات! .

وقال في ذلك: "ما أقبح أن يُطلبَ العالِم، فيقال: هو بباب الأمير، يطلب أمراً من أمور الدنيا" [٦] .

- وبين أن الابتلاء ينال كل إنسان، بالخير والشر، ليظهر مكنون إيمانه وخبايا القلوب عملاً وسلوكاً، فيكون الحساب والجزاء على ذلك العمل. وفي

---

(١) "تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٧٢ .

(٢) هو إبراهيم بن هاشم بن مشكان، صاحب بشر بن الحارث، مات عام ٢٤٢هـ. انظر "تاريخ بغداد وذيوله"، للبغدادي، ج٦، ص ٢٠٠ .

(٣) جعفر بن يحيى بن خالد، بن برمك، الوزير، أبو الفضل، من رجال العلم، جليل المقدار، بليغ فصيح، أحد أهم رجال هارون الرشيد في الحكم، مات مسجوناً بالرقة عام ١٩٠هـ عن ٧٠ سنة. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص٦٠ ــ ٦٤ .

(٤) انظر: "الورع" للإمام أبى بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي ، تحقيق سمير أمين الزهيري ، ط١ ، ١٩٩٧م ، دار الصميعي للنشر ، السعودية، ص١٧ .

(٥) "طبقات الأولياء"، ج١، ص ٨١ .

(٦) "صفة الصفوة"، ج٢، ص ٢٢٠ .

ذلك قال: "ما أعلم أحداً من الناس إلا مبتلى: رجل بسط الله تعالى له رزقه، فينظر كيف شكره، ورجل قبض الله – ﷻ – رزقه، فينظر كيف صبره" [١] .

– وهوَّن سيدنا بشر ما يلاقيه المؤمن من بلاء ومصائب، في دينه، فعند الله الخلَف والعوض. وأكبر عوض رضاه وجنته، وفي ذلك روى قول سفيان الثوري: "ما ضرهم ما أصابهم في دنياهم، جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة"[٢] .

إن بشراً طالب كل مسلم ومصلح بالصبر الجميل على المكاره، وتحمل كل أذى في سبيل ذلك، دون شكوى همومه ومتاعبه للآخرين، لذا بين أن "الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه للناس" [٣] .

– وخاطب طالب العلم بضرورة التعلّم والعمل والتعليم وعدم إرادة الدنيا بذلك، حتى يصح طلبه، وعدم الاكتفاء بالتعلم فقط، فقال: "إنما أنت متلذذ، تسمع وتملِي، إنما يراد من العلم العمل، استمع وتعلم واعمل وعلِّم، واهرب، ألم تر إلى سفيان الثوري، كيف طلب العلم، فعلِم وعمل وعلَّم، وهرب، وطلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا، وليس على حبها"[٤] .

وقال في ذلك: "كل حرف من العلم يدل صاحبَه على الهرب من الدنيا" [٥] .

وقال: "من يأكل الدنيا بالعلم، كمـــن يغسل يده من الزهومة [٦]، بماء تنظيف السمك القديد" [٧] . وحذر من تسخير العلم لنيل الرئاسة والمكانة لدى الناس، وعدم ابتغاء وجه الله وحده، فقال: "من طلب الرياسة بالعلم تقربَ

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٥٠، و"الكواكب الدرية ..."، ج١، ص ٥٦٠ .

(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٣٣٨ .

(٣) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص ٤٣، و"طبقات الأولياء"، ص ١١٣ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٧ .

(٥) "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية"، ج١، ص ٥٦٣ .

(٦) الزهومة: رائحة الشحم .

(3) "الكواكب الدرية ..."، ص ٥٦٤ .

إلى الله ببغضه، فإنه مقت في السماء والأرض" [١]. وقال: "حبك لمعرفة الناس رأس محبة الدنيا" [٢] .

وقد جاءه رجل من خراسان يطلب منه تحديثه بخمسة أحاديث، يعلّم بها أهل خراسان، ويذكره بها هناك، فبرك قدامه وقال له: "يا أبا نصر، أنا وفد خراسان، حدِّثني بخمسة أحاديث، أذكرك بها بخراسان". فلم يزل الرجل يلح في طلبه، وسيدنا بشر يرفض ويقول له: "المحدثون كثير"، وزاد الرجل في الحاجة وقال لبشر: "يا أبا نصر، أليس تروي عن عيسى – عليه السلام – أنه قال: من عِلم وعمل وعلّم، فذلك الذي يُدعى عظيماً في ملكوت السماء". فطلب منه سيدنا بشر إعادة ما قال من كلام نبي الله عيسى، فرد سيدنا بشر عليه: "صدقْتَ، فقد علمنا، حتى نعمل، ثم نعلِّم" [٣] .

ولما سأله رجل أن يحدثه، أبى بشر، وألح الرجل عليه وهو يصر على الرفض، فلما

أيسَ الرجل منه قال له: يا أبا نصر، ما تقول لله غداً إذا لقيتَه وسألك: لم لا تحدث؟. فقال له بشر: "أقول: يا رب، كان نفسي تشتهي أن تحدث، فامتنعت من أن أحدث، ولم أعطها شهوتها!!" [٤] . وفي رواية أخرى أنه لما أبي التحديث، قيل له: ما تقول لربك، إذا قال لك: لِمَ لا تحدث عبادي بحديث نبيى؟. فقال سيدنا بشر: "أقول: أمرْتني بمخالفة نفسي، ونفسي كانت تحب التحديث والرياسة فخالفتُها" [٥] .

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٥٦٠ .

(٢) "طبقات الصوفية"، للسلمي، ص ٥٠ .

(٣) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٣٨ .

(٤) المرجع السابق، ج٨، ص ٣٥٥ .

(٥) "الكواكب الدرية ....."، ج١، ص ٥٦٣ .

المطلب الثاني : الشعور بالمسؤولية عند الإفتاء ، وشـــدة ورعـــه .

حكى الفتح بن شخرف[١] ذلك، فقال: كنتُ جالساً عند بشر، إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة، فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: "اللهم إني أخاف أن أتكلم، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن أسكت، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام!" [٢] .

وقد شهد ابن حنبل لبشر بالورع الشديد يدل على ذلك سؤال للإمام أحمد، وُجِّهَ إليه، عن مسألة في الورع، فرد بقوله: "أنا؟. أستغفر الله، لا يحل لي أن أتكلم في مسألة في الورع، أنا آكل من غَلة بغداد. لو كان بشر بن الحارث صلح أن يجيبك عنه، فإنه لا يأكل من غَلة بغداد ولا من طعام السَّواد، إنه يصلح أن يتلكم في الورع!" .

ونُقِل عن أحمد قوله – مُشِيداً ومقدراً مكانة بشر– : "والله إن بين أظُهركم رجلاً، ما هو عندي بدون عامر بن عبد الله". يعني بشر بن الحارث! [٣] .

أي يرى بشراً في عظمة وسمو قدر التابعي عامراً.

وبين أهمية الورع في حياة المسلم، وأنه لابد أن يحصّل المسلم جزءاً منه، فقال: "لأن يلقى الله العبد وفي قلبه من الورع ما يزن هذه النبتة وأشار إلى تبنة رفعها من الأرض أفضل من أن يلقاه بأعمال أهل الأرض من النوافل، وليس له ورع!!" [٤] .

وقد حُكي عن سيدنا بشر أنه دعي إلى دعوة، فوَضع بين يديه طعام، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد، ثم جهد فلم يستطع ثلاث مرات، فقال رجل ممن

---

(١) الفتح بن شخرف ، بن داوود بن مزاحم، أبو نصر، كان أحد العباد السائحين، ثم سكن بغداد، وكان محدثاً، صحب الإمام أحمد وجالسه، أحبه الإمام وأثنى عليه، توفى عام ٢٧٣هـ، ــ رحمه الله ــ. انظر" طبقات الحنابلة"، ج١، ص ٢٥٥ .

(٢) "صفة الصفوة"، ج١، ص ٤٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ج١، ص ٧٦، و"تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ١٩٩ .

(٤) "المنتقى من طبقات الأولياء"، مرجع سابق، ص ٥٢ .

يعرفه: إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة، ما كـــان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعـــو هذا الرجل إلى بيته!" [١] .

– وعندما سأل واحد الإمام أحمد مَن مِن العلماء يسأله في العلم والدين، قال له الإمام أحمد: بشر بن الحارث [٢] .

– وعندما مات بشر أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه بموته، فحزن الإمام أحمد وقال: "رحمه الله، لقد كان في ذكره أنس" .

ثم لبس أحمد رداءه وخرج، فشهد جنازته [٣] .

ومما قاله الإمام أحمد عن سيدنا بشر، عند وفاته: "مات – رحمه الله–، والله ما له نظير في هذه الأمة، إلا عامر بن عبد قيس، فإن عامراً مات ولم يترك شيئاً!" .

وتمنى الإمام أحمد لو تزوج سيدنا بشر قبل وفاته! [٤] .

– إن هذا الورع كان مشهوراً في أسرة سيدنا بشر، ولم يكن وحده، فكانت للإمام بشر ثلاث أخوات هن: زبدة ومضغة، ومخة .

كن جميعاً من أهل الزهد والورع والعبادة .

وشهد لهن بذلك الإمام أحمد بن حنبل، فقال: "من أحب أن يعرف بُعده عن سبيل الورعين فليدخل على أختَيْ بشر الحافي، ويسمع من مسائلهما، ويبصر طريقتهما". [٥] [بقصد مخة ومضغة] .

وكانت أكبرهن "مُضغة"، ماتت قبل موت أخيها بشر، فحزن عليها حزناً شديداً، وبكى بكاءً كثيراً، فقيل له في ذلك الحزن الشديد والبكاء، فقال: "قرأت في بعض

---

(١) "اللمع"، مرجع سابق، ص ٢٠٣ .

(٢) د/ عبد الحليم محمود، " العارف بالله، بشر"، ص ٣٤ .

(٣) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢٢٠، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص٥٤٧.

(٤) "سير أعلام النبلاء، ج٨، ص ٤٩٠، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٦، ٥٤٧ .

(٥) "طبقات الصوفية"، لعبد الرحمن السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط (١)، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤١١، ٤١٢ .

الكتب أن العبد إذا قصر في خدمة ربه سلبه أنيسه، وهذه أختي مضغة كانت أنيستي في الدنيا"[١] .

وفي "الكواكب الدرية" أنه قال: "إذا قصر العبد في العمل فيما بينه وبين الله، سلبه الله من كان يؤنسه؛ من أخ أو علم أو حال" [٢] .

وقد سألت إحدى أخوات بشر الإمام أحمد عدة أسئلة، تثبت ورعها وقوة خشيتها لربها، ودقة فهمها قضايا دينها، فسألته قائلة: "يا أبا عبد الله، إني امرأة أغزل في الليل على ضوء السراج، وربما طفئ السراج، فأغزل على ضوء القمر، فهل عليَّ أن أبين غزل السراج من غزل القمر؟" .

فأجابها الإمام: "إن كان عندكِ فرقٌ بينهما فعلكِ أن تبيني ذلك"!.

ثم سألته: يا أبا عبد الله، أنين المريض، هل هو شكوى؟

أجاب الإمام: "أرجو أن لا يكون شكوى، ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى!" .

بعد ذلك انصرفت، فقال الإمام لابنه:" يا بُني، ما سمعتُ إنساناً قط، يسألني عن مثل ما سألت هذه المرأة". وطلب من ابنه اتباعها ليعلم من هي، فتبعها، حتى دخلت دار بشر الحافي، فعلم أنها أخت سيدنا بشر!!، وأخبر أباه فقال: "هذا والله هو الصحيح، محال أن تكون هذه المرأة إلا أخت بشر الحافي"[٣] .

– وفي "طبقات الأولياء" جاءت رواية أن أختاً لسيدنا بشر جاءت إلى الإمام أحمد تسأله قائلة: "إني امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيع الغزل، ولا أبيِّن غزل النهار من الليل، فهل عليَّ في ذلك شيء؟". فأجاب الإمام أحمد: "يجب أن تبيني!" .

ثم انصرفت، فطلب الإمام أحمد من ابنه معرفة من تكون هذه المرأة، فعلم أنها أخت سيدنا بشر وأخبر أباه!، فسر الإمام أحمد من ورعها وتقواها![٤] .

---

(١) "وفيات الأعيان"، ج١، ص ٢٧٦، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٧٤ .

(٢) "الكواكب الدرية"، ج١، ص ٥٦٤ .

(٣) انظر: "الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٩٢، و"وفيات الأعيان"، ج١، ص٢٧٦ .

(٤) "طبقات الأولياء"، ص ٣٧٦ .

وورد أنها سألته عن غزلها بالليل، اكتساباً للمعاش، وأن شرطة الوالي تمر بالشراع فتغزل على ضوء سراج الشرطة المارة، جزءاً من الغزل، أيحل هذا أم يحرم؟. فتعجب من دقة ورعها وتقواها، وقال "آهٍ يا آل بشر، لا عدمتكم، لا أزال أسمع الورع الصافي من قِبلكم!" [١] .

وفي "الجواهر المضية في طبقات الحنفية" جاء أن امرأة سألت الإمام أحمد، قائلة : إن شموع آل طاهر [عسكر الأمير]، تعبر من محلنا، ونحن نغزل في ضوئها، ونحن على السطوح، طاقة أو طاقتين، فهل يحل لنا ثمن ذلك الغزل؟! .

فسألها الإمام: من أنتِ؟. قالت: أخت بشر الحافي! .

فسر الإمام ومدحها وأهلها، وقال: :مازال هذا الورع الصافي يخرج من آل بشر الحافي" [٢] .

وفي "الكواكب الدرية" أن الإمام أحمد، بكى وأبكى من حوله من عظمة ورعها وتقواها، وقال لها: "من بيتكم خرج الورع، لا تغزلي في شعاعها"[٣] .

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٣، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر ....."، ص ٨٦ .

(٢) "الجواهر المضية في طبقات الحنفية"، ج١، ص ٤٨٨ .

(٣) "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية"، ج١، ص ٥٦٦ .

المطلب الثالث : تعامله الكريم مع إخوانه العلماء ، وثناؤه عليهم .

كان ذا تعامل كريم مع إخوانه العلماء، وأقرانه، يحبهم ويثني عليهم ويؤْثرهم بالخير، ومن الوقائع المبينة لذلك ما حدث منه مع المحدث خالد بن خداش[١]، أثناء انصرافهما من المصلى يوم عيد الأضحى، حيث سلم عليه خالد، فقصَّر بشر في السلام، فاندهش خالد، وسأله: "بيني وبينك مودة من أكثر من ستين سنة، ما تغيرت عليك، فما هذا التغير؟". فبين له بشر الأمر بقوله: "ما ها هنا تغيُّر ولا تقصير، ولكن هذا يوم يستحب فيه الهدايا، وما عندي من عرَض الدنيا شيءٍ أُهدي لك، وقد رُوي في الحديث: "أن المسلميْن إذا التقيا كان أكثرهما ثواباً أبشهما بصاحبه"[٢]، فتركتك [أكثر بشاشة وترحيباً من بشر]، لتكون أفضل ثواباً" [٣] .

– وقد كان لبشر فقه دقيق ونظر بصر في حياته، وفيمن يتعامل معهم، ومن يصادق ومن يقبل هديته وصلته ... إلخ .

لذا قال، – مصوراً ذلك ومعلماً –: "ما سألت أحداً قط شيئاً من الدنيا إلا سري السقطي، لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده، ويتبرم ببقائه عنده، فأكون أعينه على ما يحب!" [٤] .

فهو سأل حبيباً له، من نظرائه في العقل والدين، لم يفش ما بينهما، ولا يمن عليه أو يؤذيه! .

وهذا سبيل الصالحين، يقبلون ممن يخف على قلوبهم القبول منه، وممن ترتفع الوحشة والحشمة فيما بينهم وبينه، "لأن ذلك هو الذي يفرح بطلبك،

---

(١) خالد بن خداش، بن عجلان، أبو الهيثم، بصري بغدادي، حدث عن مالك وأحمد وحماد بن زيد وآخرين. صدوق، ثقة، توفي ببغداد ، عام ٢٢٣ أو ٢٢٤هـ، انظر "تاريخ بغداد"، ج٨، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج١، ص ٤٨٨ .

(٢) حديث أخرجه الحكيم الترمذي عن عمر. كنز العمال (١١٤/٩)، رقم (٢٥٢٤٥) .

(٣) "مختصر تاريخ دمشق"، ج٥، ص ١٩٨ .

(٤) "قوت القلوب"، ج٢، ص ٣٣٥ .

ويرى نعمة الله تعالى عليه في أخذك" [١] .

لقد بلغ من تقدير العلماء للإمام بشر أن بعضهم كان يذهب إليه مع أبنائه، ليستفيد منه الأبناء نصيحة وإرشاداً .

من ذلك ما رواه سيدنا إبراهيم الحربي الذي قال: "حملني أبي إلى بشر بن الحارث، فقال: يا أبا نصر: ابني هذا مشتهر بكتابة الحديث والعلم .

فنصحه بشر بضرورة عمله بعلمه، فقال له: يا بُنيَّ، هذا العلم ينبغي أن يُعمل به!، فإن لم يعمل به كله، فمن كل مائتين خمسة، مثل زكاة الدراهم!" .

ولما طلب منه أبوه أن يدعو بشر لولده إبراهيم بقوله: "يا أبا نصر، تدعو له!". بين له سيدنا بشر أن دعاء الأب لولده أبلغ وأعظم، فقال: دعاؤك له أبلغ، دعاء الوالد لولده، كدعاء النبي لأمته!!" .

ويعلق الابن علي قول المربي بشر بقوله: فاستحليت كلامه، فاستحسنتُه" [٢].

ولإبراهيم الحربي كلام طيب في حق سيدنا بشر، من خلال معيشته معه! .

– وقد أثنى سيدنا بشر على المحدث الإمام يزيد بن زريع [٣]، لإتقانه وحفظه وتميزه في مجال الرواية واتباع السنة ، فقال سيدنا بشر: "كان يزيد بن زريع متقِناً، حافظاً، ما أعلم أني رأيتُ مثله، ومثل صحة حديثه". ونفس الشهادة ليزيد قالها الإمام أحمد،عن يزيد، فقال: "كان ريحانة البصرة، ما أتقنه وما أحفظه، إليه

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٣ ــ ٣٣٥ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج٨،ص ٣٤٧، ٣٤٨، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر"، ص ١٣٠ .

(٣) هو يزيد بن زريع، بن يزيدي العيشي، أبو معاوية البصري، من بكر بن وائل، وقيل: من تيم، روى عن مجموعة من كبار المحدثين، وروى عنه جماعة، منهم: بشر الحافي، وعبد الله بن المبارك، وعلي بن المديني وغيرهم، ثقة، مأمون، إمام، محدث، توفى بالبصرة عام ١٨٢هـ، ــ رحمه الله ــ. انظر: "التكميل في الجرح والتعديل، ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل"، ج٢، ص ٣٣٠، و"سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٣٠٨ .

المنتهى في التثبت، صدوق متقن"[١].

وقد كان سيدنا بشر محباً وصديقاً لمحمد بن خالد بن يزيد بن غزوان [٢]، وكان بشر يأنس إليه، لفضله، وورعه، ويقبل صلته، لورعه وحسن معاملته .

وكان محمد بن خالد ذا مال كثير، يتصدق منه، ويجهز المجاهدين إلى الثغور[٣] .

– ومما ذكره سيدنا بشر عن إبراهيم بن أدهم ومكانته العظيمة وهيبته ما ذكره عن تقدير سفيان الثوريلا بن أدهم، فحين كان سفيان يجالس ابن أدهم يتحرز سفيان من الكلام ويصغى بقوة.

قال بشر: "حدثنا يحيى بن يمان، فقال: كان سفيان إذا قعد مع إبراهيم بن أدهم، تحرز من الكلام" [٤] .

ومما مدح به بشر الإمام إبراهيم بن أدهم [٥]ــ مع مجموعة من العلماء ــ عدم أكله الدنيا بدينه وحفظه لمقام العلم والتحديث والإمامة، فقال: "ما أعرف عالماً إلا وقد أكل بدينه، إلا وهيب بن الورد[٦]، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط [٧]

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٢٩٧، و"تهذيب الكمال"، ج٣٢، ص١٢٤

(٢) هو أبو عبد الله البراثي، دين فاضل، أسند عن سفيان بن عيينة وغيره، توفى ببغداد، عام ٢٣٨هـ. انظر: "الوافي بالوفيات"، ج٣، ص٣٠ .

(٣) "الوافي بالوفيات"، ج٣، ص٣٠ .

(3) "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٣٩٣ .

(٥) إبراهيم بن أدهم: هو عبد الله بن

(٦) وهيب بن الورد، بن أبي الورد، أبو عثمان، وقيل: أبو أمية، اسمه عبد الوهاب، ووهيب لقبه. الورع النقي، الحيي، المكي، الزاهد، المربي، له مواقف وحكم مؤثرة، مات عام ١٥٣هـ. انظر "حلية الأولياء"، ج٨، ص ١٤٠ ــ ١٤٢، و"صفة الصفوة"، ج١، ص ٤١٨ ــ ٤٢٢ .

(٧) يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني، الكوفي، نزيل أنطاكية: هو، ذو الجد والنشاط،

وسالم الخوَّاص" [١].

- وكان من أقرانه العابد الزاهد، أبو نصر، فتح بن سعيد الموصلي [٢]، وكان كبير الشأن في باب الورع والمعاملات، ومن كبار مشايخ الموصل .

وكان يحضر بغداد لزيارة بشر، فورد عليه ــ مرة ــ زائراً، فأكل عنده، وأخذ "فتح" باقي الطعام، هنا انتهز بشر هذا الصنيع من "فتح"، ليعلم الحاضرين سبب صنيع أخيه "فتح". فسالهم: "أتدورن لِمَ حمل "فتح" باقي الطعام؟" .

قالوا: "لا". فبين لهم قضية عقدية وعملية مهمة في باب التوكل على الله، وقال: "أراكـــم [فتح] أنه إذا صح التوكل لا يضر الحمل". أي حمل الطعام والتزود من متاع الدنيا![٣] .

وجاء في "اللمع: أن ــ فتح الموصلي زاره، فأخرج بشر درهماً، وأعطاه لأحمد الجلاء [٤]ــ وكان يخدمه ــ وقال له: "مرَّ إلى السوق، اشتر طعاماً طيباً، وأدْماً طيباً". فخرج واشترى خبزاً نظيفاً، واشترى لبناً، لأن النبي -

---

كان العلم والخوف شعاره، والتخلي عن الدنيا دثاره، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، مات قبل المائتين بسنة. انظر "سير أعلام النبلاء:"، ج٢، ص ٤٠٧، وانظر "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٢٣٧ ــ ٢٣٩، ٢٤٣ .

(١) سلم الخواص: هو سلم بن ميمون الخوّاص، محدث ومن عباد أهل الشام، سكن الرملة، له كلام حكيم، توفى حدود ٢٢٠هـــ. انظر "الوافي بالوفيات"، ج١٥، ص ١٨٧، وانظر "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨ .

(٢) هو أبو نصر، فتح بن سعيد الموصلي، زاهد، عابد، توفى عام ٢٢٠هـــ، انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص٤٩٧، و"حلية الأولياء"، ج٨، ص ، و"تاريخ بغداد"، ج١٤، ص ٣٥٩ .

(٣) "طبقات الأولياء"، لابن الملقن، ص ٢٧٦ .

(٤) أحمد الجلاء: هو القدوة، شيخ الشام، أبو عبد الله، بن الجلاء، أحمد بن يحيى، عابد حكيم، توفى عام ١٣٦هـــ. انظر "سير أعلام ..."، ج١١، ص ١٠٠، و"حلية الأولياء"، ج١٠، ص٥٨٥، و"تاريخ بغداد، ج٥، ص٢١٣ .

ﷺ – "لم يقل لشيء من الطعام: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه إلا اللبن"، كما قال أحمد الجلاء، واشترى تمراً جيداً، وقدم الطعام وأكل "فتح"وخرج وأخذ الباقي، فلما خرج عرفهم بشر به وفسر بعض ما حدث من أمور: فقال لهم: "هذا فتح الموصلي، جاء يزورني، تدرون لِم لمْ يقل لي: كل؟. لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار: كل .

تدرون لم قال: اشترِ طعاماً طيباً!؟، لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر .

تدرون لِم حمل ما بقي من الطعام؟ .

لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحمْل!! [١] .

– ومرة زار فتح الموصلي سيدنا بشراً، ليتأكد ويتثبت من صحة حديث، فأعلمه وبين له بشر ما أراد من حفظه وما سجله في دفاتره، وأعد له بشر طعاماً، فأكلا، وأكل معهما أبو جعفر ابن أخت بشر، فلما سأله خاله عن الشيخ: من هو؟. أعلَمه بفضله وعلمه وقال له:

"هذا فتح الموصلي، الحقه، فاسأله أن يدعوَ لك!!" .

وزاره مرة أخرى، فتعانقا، وقال فتح لبشر: "يا أبا نصر، إني ذكرتُك البارحة، واشتقتُ إلى لقائك!!" [٢] .

– وكان سيدنا بشر محباً للإمام مالك عارفاً قدره الكبير في الإمامة في الحديث والفقه والتزكية، لذا، اعتبر الرواية عن مالك مكرمة ورفعة منزلة للراوي، فقال: "إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك" [٣] .

لقد التقى بشر بالإمام مالك صاحب الكتاب العظيم [الموطأ]، وسمع منه وأخذ عنه، وحج معه، وقد سأله إبراهيم بن هانئ[٤]، عن ذلك قائلاً: "يا أبا نصر،

---

(١) "اللمع في التصوف" للإمام/ الطوسي، ص ١٨٥ .

(٢) "تاريخ بغداد"، ج١٤، ص ٣٥٩ .

(٣) "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ج١، ص ١١٤ .

(٤) إبراهيم بن هانئ: أبو إسحاق، النيسابوري، كان ورعاً صالحاً، نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة. أثنى عليه الإمام أحمد، حدث عن بعض المحدثين، وروى عن كثيرون.

سمعتَ من مالك بن أنس؟[١]. فأجاب: "نعم، حججتُ معه، وسمعتُ منه" [٢] .

– وكان بشر معظماً للإمام سفيان الثوري، مقدراً لعلمه وإمامته، مشيداً مادحاً له، ومما قاله في ذلك: "كان الثوري عندنا إمام الناس" .

وقال: "سفيان في زمانه، كأبي بكر وعمر في زمانهما" [٣] .

وقد قرأ بشر كتب سفيان الثوري، وتتلمذ على آثاره، وأعجب به، وأخذ يتتبع أحواله، ويروي عنه، وقد أفصح سيدنا بشر عن أثر الثوري فيه فقال: "ما أنا عليه من أثر تلمذتي وتعلمي من سيرة سفيان الثوري!" .

إن سيدنا سفيان، كان عالم الأمة وعابدها وزاهدها، لذا نقل لنا سيدنا بشر طرفاً من سيرته، وأقواله، من ذلك نقله قول سفيان: "من كان عنده شيء من معاش فليتمسك به، فإنه سيأتي على الناس زمان أول ما يلقى الرجل يلقاه بدينه" [٤] .

ــ ونقل بشر عن المعافي [٥]بن عمران قول الثوري: "إرضاء الخلْق غاية لا تُدرك"!!" [٦] .

توفى عام ٢٦٥هـ. انظر "تاريخ بغداد"، ج٦، ص ٢٠٤، و"شذرات الذهب"، ج٣، ص ٢٨١ .

(١) الإمام مالك بن أنس: شيخ الإسلام، إمام دار الهجرة، ولد عام ٣هـ، صاحب السفْر النفيس و"الموطأ"، أستاذ الشافعي، مناقبه كثيرة، ألفت عن ذلك كتب. صاحب المذهب الفقهي المعروف. انظر" سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص٤٨ ــ ٩٩ .

(٢) "تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٢٤٦، و د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله بشر بن الحارث الحافي"، مرجع سابق، ص ٤١ .

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج٧، ص ٢٣٩ .

(٤) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٩ .

(٥) هو الإمام، شيخ الإسلام المعافي بن عمران بن نفيل بن جابر الأزدي، الموصلي، صاحب سنة، ثقة، فاضلاً، حافظ، ولد عام ١٢٣هـ، وتوفى عام ١٨٤هـ، وقيل: ١٨٦هـ. انظر: "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص٨١، و"تاريخ بغداد"، ج١٣، ص٢٢٦ .

(٦) "حلية الأولياء"، ج٨، ص٣٣٨ .

وذكر أن سفيان إذا عاد رجلاً قال له : "عافاك الله من النار" [١]وذكر بشر كلاماً رائعاً يبين قضية عدم لزوم الزهد للفقر، وحرمان الأغنياء من نعمة الزهد، فقال بشر: قيل لسفيان أيكون الرجل زاهدا ويكون له مال؟. قال سفيان : نعم، إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر[٢].

وبلغ تقدير بشر لكتاب الحديث الذي جمعه سفيان، والمسمى "جامع سفيان"، أن قال: "ينبغي للرجل إذا حفظ القرآن، وكتب "جامع سفيان" أن يتفرغ للعبادة" [٣] .

وصدق شيخ الأزهر، الإمام الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله –، حين بين طرفاً من سمات سفيان الثوري المتميزة، من بُعده عن أجواء النفاق، والنضال في سبيل الحق، وإمامته في الحديث، وعمله في التجارة، ليكتسب مالاً حلالاً، فلا يكون هناك ما يقيده في آرائه ، وإعلانه كلمة الحق [٤] .

لقد أحب بشر وأعجب بالإمام المحدث سفيان بن عيينة[٥]، وروى له أحاديث، ونقل عنه كلاماً حكيماً عظيماً. من أهمه قول ابن عيينة: "ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر، إنما العاقل الذي إذا رأى الخير اتبعه، وإذا رأى الشر اجتنبه" [٦] .

إنه ينبه إلى ضرورة الجمع بين المعرفة والعلم والعمل معاً، ولا تكفي

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٥ .

(٢) حلية الأولياء ، جـ٦ ص ٣٠٦ .

(٣) د/ عبد الحليم محمود، "العارف بالله، بشر بن الحارث الحافي"، مرجع سابق، ص ٣٦ ــ ٣٩ .

(٤) المرجع السابق، ص ٣٧ ــ ٤٢ .

(٥) سفيان بن عيينة: هو الإمام، المحدث، الفقيه، العظيم، سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، الكوفي، محدث الحرم المكي، ولد بالكوفة عام ١٠٧هـ، ومات عام ١٩٨م، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٠٠ .

(٦) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٣٩ .

المعرفة بالخير والشر، بل الأخذ والعمل بالخير دليل حبه، والتعلق به والصدق، والتجنب للشر والقبح دليل الرشد والعقل السديد .

- وكم أثنى على الإمام القدوة المحدث، القاسم [١] بن يزيد الجرمي الموصلي، من أصحاب سفيان الثوري، زاهد، ثقة، قال عنه سيدنا بشر:"كان قاسم يحفظ المسائل والحديث".

وذكر أن الإمام المعافَى بن عمران كان يوصيهم بالأخذ عن الإمام القاسم لحفظه وأمانته، ويقول لهم: "اسمعوا منه، فإنه الأمين المأمون" .

وقال بشر عن القاسم: "ما رأت عيناي مثل قاسم الجرمي، ــ رحمه الله ــ"[٢] .

- وقد كان سيدنا بشر معجباً بالعالم الصالح، الأمار بالمعروف، خالد الطحان[٣]، يحمد مذهبه وطريقته في العبادة والبذل والدعوة القوية لدين الله، وكان خالد "رجل عامة" يخالط الناس ويزكيهم! .

وقد أثنى عليه الإمام أحمد، فقال عن خالد الطحان: "كان ثقة، صالحاً في دينه، بلغني أنه اشترى نفسه من الله ثلاث مرات، أو أربعاً، فتصدق بوزن نفسه فضة" [٤] .

وذكر سيدنا بشر أنه سمع خالد الطحان يعظ ويذكر، فقال: "سمعت خالد الطحان وهو يذكّر، فقال: "إياكم وسرائر الشرك!. فسأله بشر: "وكيف سرائر الشرك"؟. قال: "أن يصلي أحدكم فيطول في ركوعه وسجوده حتى يلحقه"[٥] .

---

(١) انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص٥٠، و"شذرات الذهب"، ج١، ص٣٤١، و"تاريخ بغداد"، ج١٢، ص٢٦، وقد توفى عام ١٩٤هـ .

(٢) "سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٥٠ .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد، الحافظ، الإمام، ثقة، مات عام ١٧٩هـ. انظر: "طبقات الحفاظ"، المرجع السابق، نفس البيانات .

(٤) "طبقات الحفاظ "، للذهبي، ج١، ص ١٩١ .

(٥) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٨ .

أي يتعمد التطويل ، لينال ثناء ومدحاً !.

– وقد أحب سيدنا بشر المعافي بن عمران، بقوة، لدرجة أنه سئل: "تراك تعشق المعافي؟!". فأجاب: "ومالي لا أعشقه، وقد كان سفيان الثوري يسميه: "الياقوتة"، وفي رواية: "ياقوتة العلماء!". ويبين سيدنا بشر أثر المعافي في شخصيته فيقول: "إني لأذكر المعافي اليوم، فأنتفع بذكره، وأذكر رؤيته فأنتفع" .

وقد رأى منه سيدنا بشر صبراً وثباتاً ورضاً بقضاء الله، قلما يحدث، قال بشر في ذلك: "كان المعافي في الفرح والحزن واحداً!، قتلت الخوارج له ولدين، فما جزع أو سخط، بل جمع أصحابه وأطعمهم، ثم قال لهم: آجَرَكم الله في فلان وفلان!!". يعزي نفسه ويواسيهم! .

وقد كان "المعافي" أحد الأسخياء المعروفين، أفنى الجودُ ماله، يرسل إلى أصحابه ما يكفيهم سنة، وكانوا أربعة وثلاثين رجلاً!، وقد كان من أئمة العلم والعمل ــ رحمه الله ــ. وقد صنف في الزهد والسنن والفتن، والأدب وغير ذلك [١] .

وروي عن "المعافي" قوله: "يأتي على الناس زمان، أقل شيء في ذلك الزمان: أخ مؤنس، أو درهم من حلال، أو عمل في سنة" [٢] .

– وكان سيدنا بشر يجل ويكرم المثنى بن جامع، أبا الحسن، الأنباري، الزاهد [٣]، كان ثقة، مشهوراً بالسنة، من أصحاب الإمام أحمد، مستجاب الدعوة [٤] .

– وكان يود ويزور أحد العلماء العباد ببغداد، وهو عبد الله بن الفرج، أبو

---

(١) "سير أعلام النبلاء"، ج٩، ص ٨٢، ٨٣ .

(٢) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٥٥ .

(٣) هو العالم، الثقة، أبو الحسن، الأنباري، روى عن أحمد بن حنبل وسريج بن يونس، وروى عنه البعض، انظر: "تاريخ الإسلام"، ج٦، ص ٤٣٠ .

(٤) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٦، ص ٤٣٠ .

محمد، القنطري[١]، وكان له كلام نافع مؤثر [٢] .

- وذكر سيدنا بشر أنه دخل على العالم الزاهد عبد الله بن داود [٣]، المعروف بالخريبي، في مرضه الذي ماتفيه، فجعل يمر يدَه على الحائط ويقول: "لو خيرت بين دخول الجنة وبين أن أكون لبنة من هذا الحائط، لاخترت أن أكون لبنة!" .

ثم تساءل: "متى أدخل أنا الجنة؟!" [٤] .

إنه التعظيم لجناب الله وحقوقه، واستصغار النفس وما قدمت من طاعات، وهذا درس لكل عابد ألا يغتر بعبادته واجتهاده، بل يظل راغباً رجياً رحمة ربه، فلولاها ما قُبل عملُه ولا دخل جنة!! .

وقد نقل سيدنا بشر إشادة العالم عبد الله الخريبي بالجهبذين العظيمين: سفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، حين قال: "إذا أردت الآثار، فسفيان الثوري، وإذا أردت تلك الدقائق [الفقهية]، فأبو حنيفة" [٥].

- وحذر من النيل من الفقيه الكبير سيدنا أبي حنيفة، لذا أسمع طلابه كلمة العالم الخريبي في ذلك، وهي قوله: ما يقع في أبي حنيفة إلا جاهل أو حاسد!!" [٦] .

---

(١) عبد الله القنطري: هو عبد الله بن الفرج، أبو محمد، توفى من عام ٢٢١ ــ ٢٣٠هـ. انظر "تاريخ الإسلام"، ج٥، ص ٦٠٧، و"تاريخ بغداد"، ج١١، ص ٢٢٨ .

(٢) المرجع السابق، ج٥، ٦٧ .

(٣) هو أبو عبد الرحمن الهمداني، الكوفي، المعروف بالخريبي، عبد الله بن داود بن عامر، بن الربيع، من كبار أئمة الأثر، ثقة، ناسك، مات عام ٢١٣هـ. انظر: "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٣٤١ .

(٤) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٣٤٠، ٣٤١ .

(٥) أبو حنيفة: هو الإمام العظيم الكوفي، النعمان بن ثابت بن زوطي، التيمي، ولد عام ٨٠هـ، بالكوفة، ورأى صحابة، منهم: أنس بن مالك. عابد ورع، سخي، صاحب المذهب المعروف، انظر "سير أعلام النبلاء"، ج٦، ص ٣٩٩ ــ ٤٠٠ .

(٦) "مناقب الإمام أبي حنيفة وأصحابه"، ص ٢٩، ٣٢ .

– وقد كان سيدنا بشر معجباً ومحباً لأربعة كبار، وتمنى مجالستهم كثيراً، وكان يشتاق إليهم، فقال في ذلك: أتمنى أربعة: يوسف [١] بن أسباط، والثوري، وسليمان الخوّاص، وإبراهيم بن أدهم" .

– ومن أقران سيدنا بشر وسري السقطي الواعظ الزاهد الأنطاكي، أحمد بن عاصم[٢]، وقد حدث عن مجموعة من المحدثين، منهم: الهيثم بن جميل، ومخلد بن الحسين وغيرهم.

وروى عنه مجموعة، منهم: أحمد بن أبي الحواري، وعبد العزيز بن محمد الدمشقي وغيرهم، ومن عظاته المؤثرة قوله: "أَصلِح فيما بقى، يُغفَر لك فيما مضى" .

وقوله: "يسير اليقين يُخرج كل الشك من القلب، ويسير الشك يُخرج كل اليقين من القلب" .

و"قلة الخوف من قلة الحزن، ــ [على التقصير والعصيان والغفلة] ــ في القلب، وإذا قل الحزن خرب القلب. كما أن البيت إذا لم يُسكن خرب" [٣] .

وكانت هناك خطابات متبادلة لسيدنا بشر مع عدد من أصدقائه العلماء والمربين، هذه الرسائل والخطابات تمتلئ حباً وصدقاً ونصحاً بلزوم الشرع، والعمل للآخرة، من هذه الخطابات ما كتبه إلى علي بن خشرم، حيث قال في رسالته له :–

"إلى أبي الحسن بن علي بن خشرم: السلام عليك، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني أسأل الله أن يتم ما بنا وبكم من نعمة، وأن يرزقنا وإياكم الشكر على إحسانه، وأن يميتنا ويحيينا وإياكم على الإسلام،

---

(١) هو يوسف

(٢) أحمد بن عاصم الأنطاكي، كان للهوى قاصماً، ولشرور النفس هاشماً، أبو علي، من أقران بشر الحافي، والسري والمحاسب، له كلام حكيم ومواقف مربية ــ رحمه الله ــ. انظر" طبقات الصوفية"، ص ١١٨، و"سير أعلام النبلاء"، ج١١، ص ٤٠٩ .

(٣) "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٥٠٨ .

وأن يسلم لنا ولكم خلفاً من تلف، وعوضاً من كل رزية .

أوصيك بتقوى الله يا علي، ولزوم أمره، والتمسك بكتابه، ثم اتباع آثار القوم الذين سبقونا بالإيمان، وسهلوا لنا السبيل، فاجعلهم نصب عينيك، وأكثر عرض حالاتهم عليك، تأنس بهم في الخلاء، ويغنوك عن مشاهدة الملأ، فمثل حالَهم كأنك تشاهدهم، فمجالسة أصحاب النبي – ﷺ – أوفق من مجالسة الموتى. [يقصد الأحياء من العلماء الذين لا يقتربون من منزلة الصحابة وصلاحهم!] .

واعلم علَّمك الله الخير وجعلك من أهله أن أكثر عمرك فيما أرى قد انقضى، ومن يُرضَي حالُه قد مضى، وأنتَ لاحقٌ بهم، وأنت مطلوب ولا تعجز طالبك، وأنت أسير في يديه، وكل الخلق في كبريائه صغير، وكلهم إليه فقير، فلا يشغلنك كثرة من يحبك، وتضرعْ إليه تضرع ذليل إلى عزيز، وفقير إلى غنيّ، وأسير لا يجد ملجأً ولا مفراً يفر إليه عنا، وخائف مما قدمت يداه، غير واثق على ما يقدم، لا يقطع الرجاء، ولا يدَع الدعاء، ولا يأمن من الفتن والبلاء، فلعله إن رآك كذلك عطف عليك بفضله، وأمدك بمعونته، وبلغ بك ما تأمله من عفوه ورحمته" .

وتابع قوله ونصحه: فافزعْ إليه في نوائبك، واستعِن به على ما ضعفت عنه قوتك، فإنك إذا فعلْتَ ذلك قربك بخضوعك له، ووجدتَه أسرعَ إليك من أبويك، وأقرب إليك من نفسك، وبالله التوفيق، وإياه أسأل خير المواهب لنا ولك [1].

ومما جاء عنه من نصح وتوجيه فيما يتعلق بالحذر من مخاطر الشهرة وثناء الناس، قوله : "واعلم يا علي، أن من ابتُلي بالشهرة ومعرفة الناس فمصيبته جليلة، فجبرها الله لنا، ولك بالخضوع والاستكانة، والذل لعظمته، وكفانا وإياك فتنتها وشر عاقبتها، فإنه تولى ذلك من أوليائه ومن أراد توفيقه، وارجعْ إلى أقرب الأمْرين بك إلى إرضاء ربك، ولا ترجعن بقلبك إلى محمدة أهل زمانك ولا ذمهم، فإن من كان يتقي ذلك منه قد مات". وأخذ بشر

---

[1] "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤١، ٣٤٢.

ينبهه إلى عدم الالتفات إلى إعجاب أو غضب أحد من الناس، ممن ماتت قلوبهم، وغفلوا عن الآخرة وفي ذلك قال: "لا تبالِ من تركك لهم، ولا تأسَ على فقدهم، واعلم أن حظك في بُعدهم أوفر من حظك في قربهم، وحسبُك الله، فاتخذه أنيساً، فيه الخلَفُ منهم" .

وحذر من هذا الصنف الذي ينصح بعدم مجالسته والقرب منه، بقوله: "إن أمكنتهم من نفسك أثموك، وإن جانبتَهم أشركوك، فاختر لنفسك، وكرّه لها ملابستَهم، وأرى أن الفضل اليوم ما هو إلا في العزلة، لأن السلامة فيها، وكفى بالسلامة فضلاً" .

وختم رسالته الناصحة بقوله له: "اجعل أذنك عما يؤثمك صماء، وعينك عنه عمياء" [١] .

ومن المراسلات مع إخوانه العلماء والمربين كتابته رسالة للعالم منصور بن عمار، جاء فيها: "اكتب إليَّ بما منَّ الله – ﷻ – علينا". فكتب إليه منصور: "أما بعد، يا أخي، فقد أصبح بنا من نعم الله – ﷻ – ما لا نحصيه، مع كثرة ما نعصيه، وبقيت متحيراً فيما بين هاتين، لا أدري كيف أشكره بجميل ما نشر، أو قبيح ما ستر" [٢] .

وفاته – رحمه الله –.

توفى عشية الأربعاء، وقيل يوم الجمعة، لعشر بقين من ربيع الأول، وقيل لعشر خلون من المحرم. سنة ٢٢٧هـ، عن ٧٥ أو ٧٧ سنة ـ رحمه الله ورضي عنه ـ [٣] .

---

(١) "حلية الأولياء"، ج٨، ص ٣٤٢، ٣٤٣ .

(٢) المرجع السابق، ج٧، ص٦٣، وابن المقرئ، أبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني، "المعجم"، تحقيق: عادل بن سعد، مكتبة الرشد، الرياض، ط (١)، ١٩٩٨م، ص ١٩١ ، بتصرف.

(٣) "صفة الصفوة"، ج١، ص٤٧٧، و"سير أعلام النبلاء"، ج٨، ص ٤٩١، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٧ .

وقد رأى كثيرون رؤى طيبة لبشر بعد وفاته، تدل على إكرام الله له ورضاه عنه، وتمتعه بنعيم الجنة، جزاء عفته عن الحرام، وزهده في الدنيا .

– وقد كانت جنازته عظيمة الشأن، كثر حاضروها والمصلون عليه، لدرجة أن صاح أبو نصر التمار [١]وعلي ابن المديني في جنازته بقولهم: "هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة". وذلك أن بشراً أخرجت جنازته بعد صلاة الصبح، ولم يوضع في القبر إلا ليلاً، وكان نهاراً صائفاً، والنهار فيه طول، ولم يستقر في القَبر إلى العتمة!! [٢] .

– لقد عاش سيدنا بشر حياة مليئة بالعلم والعبادة والدعوة والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزهد ومكابدة للحياة، يعد نفسه للقاء ربه، وقد مرض في أواخر أيامه، وصبر حتى جاءه أجله، ــ رحمه الله ــ .

– والعجيب بقاؤه وفياً لمبادئه التي عاش عليها، فظل معطاء كريماً، وأنفق آخر ما يملك في هذه الدنيا، وهو قميصه الذي كان يرتديه، "أتاه رجل في مرضه، فشكى إليه الحاجة، فنزع قميصه، فأعطاه إياه، فاستعار ثوباً فمات فيه" [٣] .

– وكان يتضرع لربه في مرض موته، ويدعو قائلاً: "إلهي، رفعتني فوق قدري، وشهرتني بين الناس بالصلاح ولست صالحاً، فأسألك بوجهك الكريم أن لا تفضحني يوم الحساب" [٤] .

---

(١) أبو نصر التمار: هو عبد الملك بن عبد العزيز القشيري، أبو نصر التمار الدقيقي، الزاهد، محدث، ثقة، ورع. توفى عام ٢٢٨هـ، عن ٩١ سنة، ببغداد. انظر "تاريخ الإسلام"، للذهبي، ج٥، ص ٦٢٤ ز

(٢) "تاريخ دمشق"، لابن عساكر، ج١٠، ص٢٢٣، و"تاريخ بغداد"، ج٧، ص ٥٤٧ .

(٣) "الكواكب الدرية"، ج١، ص ٢١١، وكتاب "بشر بن الحارث، المحدث الزاهد"، ص ٢٠١ .

(٤) المرجع السابق، ج١، ص ٥٦٥ .

الخاتمة :

بعد هذه الإطلالة المتأنية على مبادئ وسمات نجاح الإمام المربي ، الداعية إلى الله ، سيدنا بشر بن الحارث – رحمه الله – ، توصلت إلى عدة نقاط ، ينبغي تأسيسها وتربية رجال الدعوة عليها . ودوام التذكير بها ، لأنَّها سبيل النجاح والفلاح في دعوتهم .

لا يمكن حصول التوفيق والسداد للداعية إلا بتمام إخلاصه لله ، وفراره من الرياء والنفاق ، ومخاطر الشهرة ، وقصده وجه ربه وحده !.

- الزهد في الدنيا ومفاتنها وعفة النفس ، أمر واجب ، على كل من أراد أن يعمل في ميدان الدعوة والتربية . ليتمكن من المضي في جهاده الدعوي ، ويتعالى على الترغيب والترهيب الذي يتعرض له من مناوئي الدعوة ، وأعدائها.
- ضرورة قيام الداعي إلى الله بأداء حقوق مجتمعه عليه ؛ من تعرف على واقعة ومشكلاته ، ونقاط القوة ، ونقاط الضعف ، ليزيد مساحات العافية والقوة والعزة في أمته .
- لذا ، لا بد من مواقف يقفها ، نصرة للحق ، وأهله ، ونيلاً من الباطل وحامليه . فإن الدعوة كلمة وموقف ، تبليغ وتطبيق ، مبدأ وفعل !.
- أما بشأن العلم والتمكن منه ، وتعظيم أمره ، وغرس أنواره في نفوس الطلاب ، والتعاون مع الهداة المصلحين ، والحفاظ عليهم ، بالنصح والرعاية ، والذب عنهم ، وإظهار فضلهم ، فهذا أمر لا غنى عنه لمن انتمى بصدق للدعوة ومبادئها ، وشعر بالمسؤولية الثقيلة نحو دينه وأمته .

هذه أهم النقاط التي اتضحت في دراستي لمبادئ النجاح الدعوي والتربوي ، التي ينبغي غرسها وتنميتها وفي نفوس الدعاة إلى الله – تعالى – .

أبرز المراجع:

١- "اجتماع الجيوش الإسلامية". ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق: زايد بن أحمد النشير ،ط(١) ، دار عالم الفوائد ، مكة ، ١٤٣١ه.

٢- "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام". ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق د/ بشار عواد معروف ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٣م.

٣- "تاريخ بغداد".، للخطيب البغدادي ، تحقيق : د/ بشار عواد ، ط. دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٢م.

٤- "تاريخ دمشق".، لابن عساكر، ط. دار الفكر للطباعة ، ١٩٩٥م.

٥- "التيسير، شرح الجامع الصغير".، لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، ط. مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٩٨٨م.

٦- "الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية". ، لعبد القادر محمد بن نصر الله الحنفي ، نشر مير محمد كتب خانة ، كراتشي ، د/ت.

٧- "حلية الأولياء". ، لأبي نعيم ، ط/٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د/ت.

٨- "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب".

٩- "الرسالة في التصوف"، للإمام/ القشيري، ط. القاهرة.

١٠-"روائع التفسير، التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي"، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي، جمع وترتيب: أبي معاذ، طارق بن عوض الله، ط (١)، ٢٠٠١م، دار العاصمة السعودية.

١١-"سير أعلام النبلاء" ، لشمس الدين ، الذهبي ، تحقيق

مجموعة من المحققين ، إشراف شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة.

١٢-"شعب الإيمان" ، للإمام البيهقي ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، مكتبة الرشد ، الرياض.

١٣-"صفة الصفوة" ، لعبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق : أحمد بن علي ، ط١ ، ٢٠٠٠م.

١٤-"طبقات الأولياء" ، لابن الملقن ، سراج الدين ، تحقيق : نور الدين شريبة الخانجي ، ص١٠٩ ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

١٥-طبقات الحفاظ "، للذهبي ، ط١ ، ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٦-"طبقات الصوفية"، لعبد الرحمن السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط (١)، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤١١، ٤١٢ .

١٧-"قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد" ، لأبي طالبا المكي ، محمد بن علي بن عطية الحارثي ، ضبطها وصححها وعلق عليها : الشيخ الدكتور : عاصم الكيالي ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٨-اللمع في التصوف"، للطوسي، أبي نصر عبد الله بن علي السراج، ص ٣٧٢، صححه: رنولد آلن نيكلسون، ط. لندن، مطبعة بريل.

١٩-"مختصر تاريخ دمشق" ، لابن منظور الإفريقي ، تحقيق روحية النحاس وآخرون ، ط١ ، ١٩٨٤م ، دار الفكر ، دمشق.

٢٠-"مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح"، لعلي بن

سلطان محمد الهروي القاري، ط (١)، ٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت.

٢١- "مناقب الإمام أبي حنيفة وأصحابه" ، لحسين بن على الصيمري ، ط٢ ، ١٩٨٥م ، عالم الكتب ، دمشق.

٢٢- "الوافي بالوفيات" ، لصلاح الدين خليل الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م.

abraz almarajie:'

1- **"ajtimae aljuyush al'iislamiati". , liabn qiam aljawzia ' tahqiqu: zayid bn 'ahmad alnashir ,ta(1) , dar ealam alfawayid , makat , 1431h.**

2- **"tarikh al'iislam wawafayat almashahir wal'aelami". , lishams aldiyn aldhahabii , tahqiq du/ bashaar eawad maeruf , ta1 , dar algharb al'iislamii , 2003m.**

3- **"tarikh baghdad"., lilkhatib albaghdadii , tahqiq : du/ bashaar eawad , ta. dar algharb al'iislamii , bayrut , 2002m.**

4- **"tarikh dimashaqa"., liabn easakiri, ta. dar alfikr liltibaeat , 1995mi.**

5- **"altaysir, sharh aljamie alsaghiri"., lizayn aldiyn eabd alrawuwf almanawi, ta. maktabat al'iimam alshaafieii, alriyad, 1988m.**

6- **"aljawahir almdyt fi tabaqat alhanafiati". , lieabd alqadir muhamad bin nasr allah alhanafii , nashar mir muhamad katab khanat , karatshi , da/t.**

7- **"haliyat al'awlia'i". , li'abi naeaym , ta/4 , dar alkitaab alearabii , bayrut , da/t.**

8- **"aldibaj almadhhab fi maerifat 'aeyan eulama' almadhhabi".**

9- **"alrisalat fi altasawuf", lil'iimami/ alqushiri, ta. alqahirati.**

10- **"rawayie altafsiri, altafsir aljamie litafsir al'iimam aibn rajab alhanbali", lizayn aldiyn eabd alrahman bin 'ahmad albaghdadi alhanbali, jame watartiba: 'abi mueadhi, tariq bin eawad allah, t (1), 2001ma, dar aleasimat alsaeudiati.**

11- **"sir 'aelam alnubala'i" , lishams aldiyn , aldhahabii , tahqiq majmueat min almuhaqiqin , 'iishraf shueayb al'arnawuwt , ta3 , muasasat alrisalati.**

12- "shaeb al'iimani" , lil'iimam albayhaqii , ta1 , 2003m , maktabat alrushd , alriyad.
13- "sifat alsafwati" , lieabd alrahman bin aljawzii , tahqiq : 'ahmad bin ealiin , ta1 , 2000m.
14- "tabaqat al'awlia'i" , liabn almulaqan , siraj aldiyn , tahqiq : nur aldiyn sharibat alkhaniji , sa109 , alqahirat , 1994m.
15- tabaqat alhifaz ", lildhahabii , ta1 , 1998m , dar alkutub aleilmiat , bayrut.
16- "tabaqat alsuwfiati", lieabd alrahman alsilmi, tahqiqu: mustafaa eabd alqadir eataa, t (1), 1998ma, dar alkutub aleilmiati, bayrut, s 411, 412 .
17- "qut alqulub fi mueamalat almahbub wawasf tariq almurid 'iilaa maqam altawhidi" , li'abi taliban almakiy , muhamad bin eali bin eatiat alharithii , dabtaha wasahahaha waealaq ealayha : alshaykh alduktur : easim alkiali , ta. dar alkutub aleilmiat , bayrut.
18- allamae fi altasawuf", liltuwsi, 'abi nasr eabd allh bin ealii alsaraji, s 372, sahhaha: rinuld alin nikilsun, ta. lindan, matbaeat bril.
19- "mukhtasar tarikh dimashqa" , liabn manzur al'iifriqiu , tahqiq ruhiat alnuhas wakhrun , ta1 , 1984m , dar alfikr , dimashqa.
20- "marqat almafatihi, sharh mishkat almasabihi", lieali bin sultan muhamad alharawii alqariy, t (1), 2002mi, dar alfikri, bayrut.
21- "manaqib al'iimam 'abi hanifat wa'ashabihu" , lihusayn bn ealaa alsaymarii , ta2 , 1985m , ealam alkutub , dimashqa.
23- "alwafi balufyat" , lisalah aldiyn khalil alsafadii , tahqiq : 'ahmad al'arnawuwt , waturki mustafaa , dar 'iihya' alturath , bayrut , 2000m.